المفردة القرآنية ودلالاتها السياقية

"الحوت أنموذجاً"

إعـــداد

د/ إيمان سعيد حسن موسى

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

المفردة القرآنية ودلالاتها السياقية (الحوت أنموذجًا)

إيمان سعيد حسن موسى
قسم البلاغة والنقد/ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات/ الإسكندرية/ جامعة الأزهر-مصر.
البريد الإلكتروني: emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يدور هذا البحث حول المفردة القرآنية ودلالاتها السياقية، بهدف إبراز أهمية السياق القرآني وأثره في فهم النص، وبيان أن كل لفظ في القرآن الكريم قد وضع في موضعه ومكانه الأنسب الذي لا يمكن استبداله بما يرادفه من ألفاظ، مهما بلغت درجة التشابه بينهما في الدلالة، وأن السياق هو المسئول الوحيد عن تجلية الدلالة الخاصة من العامة ليضعها في مكانها المناسب.

الكلمات المفتاحية: المفردة – السياق – القرآني – دلالة – الحوت.

The Quranic vocabulary and its contextual connotations (the whale as a model)

Iman Said Hassan Musa
Department of Rhetoric and Criticism/ College of Islamic and Arabic Studies for Girls/ Alexandria/ Al-Azhar University-Egypt.
Email: emansaid_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract: This research revolves around the Qur'anic vocabulary and its contextual connotations, with the aim of highlighting the importance of the Qur'anic context and its impact on understanding the text, and showing that each word in the Holy Qur'an has been placed in its proper place and place that cannot be replaced by its corresponding words, regardless of the degree of similarity between them in The significance, and that the context is the only one responsible for the manifestation of the special significance from the public in order to put it in its appropriate place.

Keywords: singular - context - Quranic - connotation - whale.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد....

فإن من رحمة الله أن من على عباده بنعمة التدبر في كتابه العزيز وقد دعانا سبحانه لذلك، فقال جل شأنه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤] ومن أعظم وجوه التدبر في القرآن التفكر في سياق آياته ومحاولة فهمها، ومعرفة الفروق الدقيقة بين كل لفظة، ليتسنى له معرفة القصد الذي جاء به النص القرآني، وسبب تخيره لفظة على أخرى، فالسياق من أعظم الطرق الموصلة للفهم الصحيح لكتاب الله ﷻ فمن خلاله يمكن التعرف على معاني الآيات ودلالاتها «فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية، وما بعدها وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره لمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين»[1].وعليه فقد وقع اختياري لموضوع هذا البحث «المفردة القرآنية ودلالاتها السياقية "الحوت أنموذجًا"».

وقد سرت على المنهج التحليلي القائم على الدراسة السياقية ، حيث إن السياق هو مناط الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

مقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياري له وخطة البحث.

تمهيد: واشتمل على ما يلي:

---

(١) مجموع الفتاوي لابن تيمية، ت/ عبد الرحمن بن محمد قاسم، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف– المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، ص(٩٤)، ج(١٥).

– تعريف السياق وأثره في الكشف عن المعنى،– تعريف الحوت.

المبحث الأول:

بلاغة لفظة (الحوت) في القرآن في ضوء السياق "حوت يونس عليه السلام".

المبحث الثاني:

بلاغة لفظة (الحوت) في القرآن في ضوء السياق "حوت موسى عليه السلام".

المبحث الثالث:

بلاغة لفظة (الحوت) في القرآن في ضوء السياق "حوت أهل السبت".

المبحث الرابع:

دراسة احصائية حول الألفاظ المتشابهة في آيات الحوت ودلالاتها السياقية.

الخاتمة

المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

والله ولي التوفيق

التمهيد

يعتمد المنهج البلاغي في دراسة المفردة القرآنية على رصد حركة المعنى من خلال السياق، لقوة أثره في الكشف عن المعاني وتحديدها ، والوقوف على الفروق الدقيقة فيما بين معاني الألفاظ ، وعليه فالسياق يعرف على أنه:

- مفهوم السياق في اللغة:

يقول ابن منظور «انساقت وتساوقت الإبل تساوقًا إذا تتابعت والمساوقة: المتتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا، وساق إليها الصِّداق والمهر سياقًا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصِّداق عند العرب الإبل وهي التي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدنانير وغيرهما»(١)، ويقال: «سوق الإبل: جلبها وطردها يقال سقته فانساق... والسَّويق سُمى لانسياقه في الحلق من غير مضغ»(٢).

ويمكن أن ننقل هذا المعنى الحسي إلى المعنى المعنوي فنقول: إنساق الكلام وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه، فالسياق إذًا: تتابع الكلام وتراسله في نسق(٣).

- السياق في الاصطلاح:

هو "النظم التركيبي للكلام الذي يوجه دلالة الكلمات والجمل والفقرات، بناء على موقعها في النص، واستنادًا إلى العلاقات المعنوية بينها، بما يتفق

---

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر–بيروت، ط(١)، ١٤١٠هـ، ج (١٠) ص (١٦٦–١٧٠)، "مادة سوق".

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني، ت/ صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط(٢)، ١٩٩٧م، ص(٤٣٦)، مادة سوق.

(٣) المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ١٩٦٠م، ص(٤٦٥/١).

في النهاية مع الغرض العام للكلام، ومع جملة الظروف الخارجية المصاحبة له"[١].

فهو ما يسمى بالقرينة الحالية، فالسياق تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة وتحدد من خلالها المعنى المقصود[٢].

- أثر السياق في الكشف عن المعنى:

للسياق دور مهم في سياق معنى المفردة وتحديد مفهومها، فاللفظة المفردة لا يمكن معرفة المراد منها إلا وهي في سياقها بجانب أختها، فاللفظة ليست بمعزل عن السورة التي وردت فيها، فهي مع أختها يكونان بنيان متكامل من خلاله ندرك علة مجيء المفردة فيها كل على حسب السياق والمعنى المطلوب وهذا ما أطلق عليه البلاغيون «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى مثل هذا بقوله: «وهل يقع في وهم –وإن جهد– أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم... وهل تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها»[٣].

ولأهمية السياق جعل العلماء المرجعية في الدلالة عن اختلاف الآراء

---

(١) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، سامي العجلان، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط(١)، ١٤٣٠هـ، ص(٥٥).

(٢) معجم مصطلحات الأدب، فاروق شوشة، محمود علي مكي، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص(٢٨٨)، وينظر معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، إبراهيم فتحي، ص(٨٣) المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٨م.

(٣) دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ت.د/ محمد رضوان، د/ فايز الراية، مكتبة سعد الدين، دمشق ط(٢)، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص(٢) ص(١٤٧)، ١٩٨٧م، ص(٩٠-٩١).

يقول ابن القيم «السياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته... »[1].

وعلى هذا فيجب للمتدبر في كتاب الله العزيز أن يضع نصب عينه كل تلك الأمور مجتمعة، ليتسنى له معرفة الأسرار في الأسباب التي من أجلها وضعت هذه المفردات لا تلك.

تعريف الحوت:

قيل إن الحوت حيوان بحري ضخم يشبه السمكة إلى حد كبير، ولكن الحيتان ليست أسماكًا، لأنها تنتمي إلى مجموعة الحيوانات التي تعرف بالثديات البحرية، والحيتان تشبه السمك من حيث الشكل العام، ولكنها تختلف عنه في وجوه كثيرة، فالحيتان من ذوات الدم الحار، والأسماك من ذوات الدم البارد، والحيتان تتنفس عن طريق الرئة، والسمك يتنفس عن طريق الخياشيم، والحيتان تلد أما الأسماك فتبيض، كما تمتاز الحيتان بالذكاء.

- الآيات التي ورد فيها لفظ الحوت:

* قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢].

* قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨].

* قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

*قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف:٦١].

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، ت/ أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤١٤هـ، (٢٢٢/٤).

* قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:٦٢].

* قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

المبحث الأول

بلاغة لفظة الحوت في القرآن في ضوء السياق

(حوت يونس عليه السلام)

وردت قصة يونس مع حوته في ثلاث مواضع من القرآن الكريم:

- قوله تعالى:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٧].

- قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

- قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[القلم:٤٨-٥٠].

هذه هي قصة يونس عليه السلام مع الحوت وقد ذكره فيها المولى ﷻ مرة باسمه الصريح (وإن يونس لمن المرسلين) ومرة بـ (ذا النون) ومرة بـ (صاحب الحوت)، (وذا النون إذ ذهب مغاضبًا)، وقوله: (ولا تكن كصاحب الحوت) وقد جاءت قصته عليه السلام كاملة مع الحوت في سورة الصافات بعشر آيات من القرآن الكريم، أشارت الآيات تلك إلى محنة يونس عليه السلام عندما غادر قومه، وألقي من السفينة، والتقمه الحوت، وتسبيحه لله في بطن الحوت، وطرحه الحوت على الشاطئ، وأنبت الله عليه شجرة اليقطين، وأعاده إلى قومه

فوجدهم مؤمنين[1].

وقد ذكرت تلك الآيات الخاصة بيونس عليه السلام مع الحوت عقب ذكره سبحانه لمجموعة من أنبيائه وذكر قصصهم ومحنتهم وما حدث لهم فناسب ذكر نبي آخر مع محنته أو بالأحرى مع عقابه جزاء ما فعل لذا جاءت هذه الآيات:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

(وإن يونس[2] لمن المرسلين) أي من جملة الرسل الذين ذكرهم الله سبحانه، والمرسلين «اسم مفعول من أرسل، فهو من المرسلين ولكنه في ثورة غضب جامح وضيق خانق توجه إلى شاطئ البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها (إذ أبق إلى الفلك المشحون) وروى أنه حين ركب السفينة وقفت فقالوا ههنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال: أنا الأبق وزج بنفسه في الماء»[3].

وقوله (إذ) ظرف متعلق بـ(المرسلين) وإنما وقتت رسالته بالزمن الذي أبق فيه الفلك لأن فعلته تلك كانت عندما أمره الله بالذهاب إلى نينوى لإبلاغ بني إسرائيل أن الله غضب عليهم، لأنهم انحرفوا عن شريعتهم، فحينما أوحى

(١) روح المعاني، (١٨٦/٢٣).

(٢) هو يونس بن متى واسمه بالعبرانية (يونان بن متى) وهو من أهل فلسطين، وهو من أبناء إسرائيل أرسله الله إلى أهل "نينوى" وكانت مدينة عظيمة من بلاد الأشوريين، التحرير والتنوير، ١٧٢/٢٣.

(٣) الكشاف للزمخشري، ٣٥٣/٣.

الله إليه بذلك عظم عليه هذا الأمر فخرج من بلده وقصد البحر هاربًا، فهال البحر بعد ما ركب عليه السلام السفينة وتم إلقاء يونس في البحر، فالتقمه حوت وجرت قصته المذكورة في سورة الأنبياء، فلما كان هروبه من كلفة الرسالة مقاربًا لإرساله وقت بكونه من المرسلين[1].

وقوله "أبق" بمعنى هرب وأصله الهروب من السيد، لكن لما كان هروبه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه وفيه استعارة تمثيلية حيث شبهت حالة خروجه من البلد الذي كلفه ربه فيه بالرسالة تباعدًا من كلفة ربه بإباق العبد من سيده الذي كلفه عملًا.

"فساهم فكان من المدحضين" ساهم أي قارع وأصله مشتق من اسم السهم ، لأنهم كانوا يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال، وتفريع فساهم، يؤذن بجمل محذوفة تقديرها "فهال البحر وخاف الراكبون الغرق فساهم[2]، ومعنى هذا أن الأحداث توالت بسرعة فائقة بمجرد ركوب يونس عليه السلام على ظهر السفينة اضطرب وخاف ركابها الغرق ، فلم يكن هناك فرصة أو مهلة ليونس من هربه ليستريح في مكان آمن ، ولكن سرعان ما اقترعوا ووقعت عليه وألقى به في ظلمات أشد وأوغل نتيجة إباقه.

هل يتوقف المشهد عند هذا الحد؟، أرسل الله له حوتًا عظيمًا التقمه (فالتقمه الحوت وهو مليم) لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها ، ولم يتحمل عبء الرسالة ، وترك قومه قبل أن يأذن الله له فجزاه الله عن ذلك بأن وجد نفسه في بطن الحوت ، حيث لا يرى النور ولا يرى أحدًا ولا أحد يراه إلا الله ﷻ، مما جعله يحس بأضعاف أضعاف الكرب والضيق الذي ضاق به صدره من قومه حين لم يستجيبوا له، فأدرك أنه قد أخطأ وأنه لم يحسن

(١) التحرير والتنوير، (١٧٢/٢٣).
(٢) السابق نفسه، (١٧٢/٢٣).

التصرف بتركه قومه[١].

والالتقام/ البلع والحوت الذي ابتلعه حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض بأسنانه، «ويتوقع أن حوت يونس عليه السلام كان من هذه الحيتان البلينية التي لا أسنان لها»[٢].

وقد قال علماء الحيوان: أن لسان الحوت يستطيع أن يقف عليه خمسون رجلًا –بدون أي مضايقة– وفم الحوت مغلق، بمعنى أن يونس عليه السلام كان جالسًا بما يشبه الغرفة الواسعة[٣]، ولهذا قال تعالى (فالتقمه الحوت) ولم يقل: (ابتلعه) أو (هضمه) كما أن الالتقام وعدم تأثره بأسنان الحوت أو هضمه إنما كان ذلك بأمر الله ، فالحوت ممتثل لأمر الله، وذلك كما ورد في البداية والنهاية في قصة يونس عليه السلام «أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر، وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا فالتقمه، وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحمًا، ولا يهشم له عظمًا، فأخذه فطاف به البحار كلها، وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه»[٤].

كما أن قوله (فالتقمه الحوت) يدل على صحة إطلاق الحوت على السمكة الكبيرة لا على حصر مسمى الحوت فيها[٥].

كما أن "التقم" من افتعل فيها من المبالغة في تكلف الفعل باجتهاد في تحصيل الإصابة بإزالة أسبابها، وهذا المعنى ملائم لحوت يونس في تصوير تعنته للإمساك بسيدنا يونس من دون أفراد السفينة، وهذا يوحي بذنب يونس عليه السلام إذ أن المتكلف لطلب شيء قد يناله وقد يعجز عنه، وكون السياق دل

(١) الحيوان في القرآن، ص(٢٠٤).
(٢) ينظر حياة الحيوان الكبرى، (١٦٣/١).
(٣) موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، ص(٦١-١٦٢).
(٤) البداية والنهاية لابن كثير، (٢٣٣/١)، تفسير الكشاف، (١٣٢/٣)، تفسير أبي السعود، (٨٢/٦)، تفسير النيسابوري، (٤٧/٥).
(٥) مختار الصحاح، ص(٨٤).

على حصول المراد من التكلف، فهو دال على أمر الله الذي نفذ فيه بابتلاع الحوت له[١].

وقوله (وهو مليم) (لوم) اللام والواو والميم كلمتان تدل إحداهما على العَتْب والعَذْل، والأخرى على الإبطاء، فالأول اللَّوم، وهو العذل، تقول لُمْتُه لَوْمًا، والرجل مَلوم والمِلِيم: الذي يستحق اللوم[٢]، فـ«مليم اسم فاعل من الفعل الرباعي المزيد بالهمزة، ويقل في معنى (وهو مليم) أي داخل في الملامة على أن بناء (أفعل) للدخول في الشيء نحو (أحرم) إذ دخل الحرم، أو آتٍ بما يلام عليه على أن الهمزة فيه للصيرورة، فهو هنا لما أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم، أو مليم نفسه، وما روى عن ابن عباس ومجاهد من تفسيرهما (مليم) بالمسيء والمذنب فبيان لحاصل المعنى حسنات الأبرار سيئات المقربين»[٣].

وقد عبر النظم الكريم باسم الفاعل "مليم" دون اسم المفعول "ملوم" وذلك لأن "مليم" إذا أتى بما يلام عليه، أما الملوم فهو اسم مفعول من الفعل الثلاثي: لام، وهو الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا[٤] وقيل الملوم هو الذي يلام باللسان ويعزل بالقول[٥].

وعلل الرازي مجئ وصف "مليم" مع يونس بأن في هذا الوصف شرفًا ليونس وبشارة للمؤمنين، أما شرفه فقد أتى بما يلام عليه بمجرد دعائه على قومه بالهلاك لما لم يؤمنوا، فلم يكن للوم سبب غير هذا، وأما بشارة المؤمنين

---

(١) سورة الصافات دراسة أسلوبية، عدالة مصطفى موسى، إشراف: د/ محمد القضاة، ماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م، ص١٢٢.

(٢) مقاييس اللغة، (٢٢٢/٥).

(٣) روح المعاني، (١٣٧/١٢).

(٤) النكت والعيون (٦٧/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، (٦١٦١/٩)، فتح القدير للشوكاني، (٢١٧/٦).

(٥) معاني القرآن للفراء، (٣٩٣/٢)، جامع البيان، (٦٢٦/١٩).

فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه، فقال ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم:٥٠][1].

كما أن النظم الكريم قد أسند التقام الحوت ليونس للحوت فقال: (فالتقمه الحوت وهو مليم) فما لبث حتى ألهمه الله التسبيح فأخرجه من بطن الحوت ومَنَّ عليه بنعمته، وبعبارة أخرى إن الصورة المشهدية لوصف (مليم) مع يونس في التقام الحوت ظاهره العقوبة وباطنه الحفظ، حتى يرجع عن ذنبه ويتوب إلى الله وقد كان.

ثم يأتي قوله: (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) فقد عطف بالفاء الدال على سرعة وقوع الأحداث وتلاحقها في الوجود، فلولا أنه كان من المسبحين لله ويذكره بقوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

فأنجاه الله بسبب تسبيحه وتوبته فقذفه الحوت من بطنه إلى البر بعد أن مكث في جوف الحوت ثلاث ليالي، وقيل يومًا وليلة وقيل بضع ساعات، وقوله (إلى يوم يبعثون) أي التأبيد بأن يميت الله حين ابتلاعه ويبقيهما في قعر البحر، أو بأن يختطف الحوت في حجر في البحر أو نحوه فلا يطفو على الماء حتى يبعث يونس عليه السلام يوم القيامة من قعر البحر[2]، ولكنها رحمة الله ولطفه وتدبيره.

(لولا) هنا حرف، امتناع لوجود أي لولا التسبيح موجود للبث في بطن الحوت، «فلولا أنه يعني يونس كان من المصلين لله قبل البلاء الذي ابتلى به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت للبث في بطنه إلى يوم يبعثون»[3] أي لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة يوم يبعث الله فيه خلقه محبوسًا، لكنه

(١) مفاتيح الغيب للرازي، (١٨٣/٢٨).
(٢) التحرير والتنوير، (١٧٦/٢٣).
(٣) الطبري (٩٩/٢٣).

كان من الذاكرين لله قبل البلاء فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجاه.

والأصل في ترتيب عناصر هذه الجملة أن يكون الفعل المقترن بأداء الشرط مضارعًا، إلا أن المتأمل في البنية التركيبية لهذه الآية يلحظ أنها وردت مختلفة الأطراف فجملة الشرط فعلية ماضية، وجملة الجواب فعلية ماضية، فلم عدل التعبير القرآني إلى الماضي، ولماذا عدل في هذه الآية، بحرف العطف إلى الفاء وكان في التركيب الأول بالواو؟

نقول إن طبيعة الطرفين المكونين للتركيب الشرطي في الآية جواب الشرط والشرط يبين اختلاف زمن الفعلين الذي خلق تباينًا في الإنسجام بين زمني الفعلين ومن ثم بتقدير الآية، فلولا أن يكون من المسبحين وإنما جاء ماضيًا مع لولا (لولا كان) والأصل مضارع، ذلك أن الفعل هنا يحمل دلالة المستقبل المستمر، وقد عدل به أسلوبيًا للغرض البلاغي الخفي الذي قصد نظم القرآن التلميح فيه دون التصريح وهو التوبيخ والتنديم، «ليعلم الناس أن الله إذا اصطفى أحدًا للرسالة لا يرخص له في الفتور عنها»[1].

وقد تجلى ذلك في الإشارة لغرض ذكر قصة يونس عليه السلام للنبي ﷺ فيما يلقاه من ثقل الرسالة، بأن ما أثقلت به محمد قد أشغل الرسل من قبلك به، فظهرت مكانته المرتفعة ﷺ في صبره على ذلك وعدم تذمره فهو مأمور باستمراره على الدعوة وهو ﷺ طائع لها[2]، وقد جاء اختيار حرف العطف في هذا التركيب لإفادة التعقيب مع الترتيب مما يحمل شحنه دلالية توحي إلى وقوع الفعل بغير مهلة أو مدة قريبة، أي أن تسبيحه كان مباشرًا بعد حدوث البلاء، بالتقام الحوت له، وفي هذا درس رباني تربوي في تعليم البشر بسرعة الاستغفار لله تعالى والتوبة له عند حدوث البلاء، وعند ارتكاب ما يغضبه، في حين جاء التركيب الشرطي مع الواو ليفيد معنى الجمع والمشاركة كون أن

(١) مغني اللبيب، ابن هشام، ج(١)، ص(٣٠٢-٣٠٥).

(٢) سورة الصافات دراسة أسلوبية، ص(١٨٦).

الحدث كان قائمًا بين جموع المؤمنين في تحاورهم عن أهل جهنم، ولذا عطف كلامهم بالواو فجاء اختيار النظم القرآني للأداة (لولا) مع حروف العطف من الحسن بمكانة، لأنها تفيد التحضيض وهو الترغيب في فعل الشيء أو تركه بأسلوب مقرون بالقوة والشدة[١] وجاء الواو بمعنى التحضيض ومع الفاء بمعنى العرض ، وهو ما يتلاءم مع الأسلوب التربوي ومن هذا نجد كيف أن العطف في هذه الآية قد جمع بين ثلاثة معان دلالية شحنها بصورة التكثيف الأسلوبي، ليكون تعقيب على فعل بتلميح بالتوبيخ أفاد تحضيضًا بعرض لفعل الشيء من خلال تعدد العناصر اللغوية والدلالية في العطف داخل المجال الواحد[٢].

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

كان يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ودون نور فكان لابد لهذا الوضع من تأثير على جسده الذي خلقه الله لأن يعيش في الهواء وفي النور، وهذا التأثير يختصره السياق القرآني بقوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) وقد ورد في تفسير السقم هنا «أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد»[٣] ولم يتركه جل جلاله على هذه الحال من السقم بل تداركه بنعمة أخرى بعد نعمة لفظة الحوت على الشاطئ، أنبت عليه شجرة في ذلك الشاطئ الذي لا تنبت فيه الأشجار (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين).

واليقطين: كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وقيل هي التين وقيل شجرة الموز تغطى بورقها واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها، والأرجح أنها القرع «قيل لرسول الله ﷺ

(١) مغني اللبيب، ابن هشام، ص(١٤٤-١٤٥).
(٢) سورة الصافات دراسة أسلوبية، ص(١٨٧).
(٣) الكشاف، (٣٥٣/٣).

إنك لتحب القرع قال أجل هي شجرة أخي يونس»[١].

فقوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) الفاء فصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر دل عليه قوله (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه) فالتقدير يسبح ربه في بطن الحوت أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له ونجاه كما في سورة الأنبياء، فلفظه الحوت وحمله الموج إلى الشاطئ.

وعبر النظم الكريم بـ"نبذ" والنبذ يعني الطرح والإلقاء[٢]، يقال نبذ الشيء إذا رماه وأبعده[٣]، واستعمال النبذ في ذلك كاستعمال الإلقاء كقوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦][٤].

فالنبذ هنا مستعمل في سياق اللوم والدليل على ذلك قوله (فالتقمه الحوت وهو مليم) فهذا يدل على أن نبذه فيه نوع من لوم الله تعالى له، ويؤكد على نهي الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ أن يكون مثل صاحب الحوت ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨].

وإسناد فعل النبذ لله تعالى (فنبذناه) مجازي، لأن حقيقة النبذ من فعل الحوت، قال الإمام الألوسي قوله: (فنبذناه) بأن حملنا الحوت على لفظة فالإسناد مجازي[٥]، وسبب هذا المجاز بيان أن فعل المخلوق هو مخلوق لله تعالى.

وقوله (سقيم) استخدم هذه اللفظة دون غيرها فلم يقل (مريض) وذلك لأن السقم مختص بمرض البدن، والمرض قد يكون في البدن وفي النفس نحو

---

(١) الكشاف، (٣/٣٥٣).

(٢) مقاييس اللغة، (٥/٣٨٠).

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري (١٤/٣١٧)، وتاج العروس من جواهر القاموس، (٩/٤٧٩).

(٤) ينظر في مفردات الراغب، ص(٧٨٨).

(٥) روح المعاني، (١٢/١٣٩).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وعلى هذا يكون معنى الآية في قوله (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) السقم الجسدي أي بلى لحمه وصار ضعيفًا، كالطفل المولود كالفرخ الذي ليس عليه ريش[١] ونقل الماوردي عن ابن مسعود ﷺ قوله في معنى السقم: أن يونس عليه السلام ضعف بعد القوة، ورق جلده بعد الشدة[٢].

وعلى هذا جاء اختبار السياق القرآني للفظة "سقيم" بدلاً من "مريض" لأنه الأنسب لحالة سيدنا يونس عليه السلام وقت خروجه من بطن الحوت وما كان يعانيه من تعب وضعف في جسده.

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) أي أنبتناها مظلة له كالخيمة، "عليه" حال من شجرة، قدمت عليها لأنها نكرة، واليقطين تفعيل من قطن بالمكان إذا قام به[٣]، وزاد الطبرسي[٤] إقامة زائل لا إقامة راسخ، ومن بدائع صنع الله أن جعل تلك الشجرة كالفراش المبثوث من جهة، وكالخيمة عليه من جهة أخرى ونلحظ هنا العطف بالواو دون الفاء في قوله (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وذلك لأن الله تعالى أراد أن يبين أن جمع له بين هذه النعم والفضائل (النبذ بالعراء – الإنبات – الإرسال) ،«ولما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبًا وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فأمنوا واستغفروا، طلبوا العفو من الله، فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين»[٥].

وقد لطف الله بعبده ونبيه الكريم بعدما جرى له وأعاده إلى حياته الطبيعية (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون)، قيل إن إرساله كان بعد خروجه

---

(١) مفاتيح الغيب، (٣٥٨/٢٦).
(٢) تأويل مثكل القرآن، ص(٢٠٢).
(٣) روح المعان، (٣١٦/٧).
(٤) الأعلام، (٣٥٢/٥-٣٥٣).
(٥) في ظلال القرآن، ص(٦٩/٢٦).

من بطن الحوت، ومجئ واو العطف هنا يقوى هذا المعنى إذ عطف هذه الأحداث بعضها على بعض بعد خروجه من بطن الحوت.

ومعنى (أو) في قوله (أو يذيدون) للعلماء فيها آراء: قيل إنها بمعنى (بل)، قال الفراء (أو) ههنا بمعنى (بل) وهو قول مقاتل أي بل يزيدون [(١)] وقيل بمعنى الواو، وقيل هي للإبهام على المخاطب ، وقيل للتخيير والمعنى إذا رأهم الرائي تخير بين أن يقول هم/ مائة ألف، أو يقول يزيدون، والمقصود بيان كثرتهم أو أن الزيادة ليست مفرطة[(٢)].

والأولى أنها بمعنى (الواو) بدليل ما نقل عن بعض الصحابة كابن عباس وأبي بن كعب وغيرهما في قول ابن عباس في قوله (إلى مائة ألف أو يزيدون) قالوا: كانوا مائة ألف وبضعة وأربعين ألفًا[(٣)].

فقوله (يزيدون) أي يزيدون في نظر الرائي فهي كناية عن الكثرة، وأن هذه الكثرة كلها آمنت بيونس عليه السلام بأنه من عند الله فآمنوا بالله جميعًا.

كما وردت قصة حوت يونس في سورة الأنبياء بصورة مختصرة في قوله تعالى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآنبياء:٨٧].

تعد هذه الآيات موضحة لما ورد في سورة الصافات، فإنه تعالى لما ذكر في الآيات السابقة أن يونس أبق من قومه إلى الفلك، والتقمه الحوت وهو مليم، جاء هذا النص ليبين لومه وهو مغاضبته لقومه وأعقب ذلك ببيان ظن يونس أن الله لن يضيق عليه، فلما علم يونس أن من أصابه تأديب رباني استغاث بالله ودعاه، فاستجاب الله دعاءه وكشف غمته[(٤)].

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣٩٣/٢)، مجاز القرآن (١٧٥/٢).

(٢) روح المعاني (١٤٧/٢٣).

(٣) جامع البيان للطبري (١١٥/٢١)، الدر المنثور (٤٨٣/١٢)، تفسير أبي حاتم (٣٢٣١/١٠).

(٤) يونس عليه السلام ودعوته، ص(١١٩).

في هذه الآية الكريمة لم يرد اسم يونس عليه السلام صريحًا كما في سورة الصافات ولكن هنا ذكر لقبه "ذا النون" أي من له شأن الحوت وقصته فـ"ذا" تفيد تعظيم الموصوف بها غالبًا، لذلك في مقام المدح قال سبحانه "وذا النون" واستعمالها في الكلام أشرف وأبلغ من صاحب، لذا وصف المولى سبحانه بها نفسه فقال ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، «فقد وضعت وصلة إلى وصف الأشخاص بالأجناس كما أن "الذي" وضعت وصلة على وصف المعارف بالجمل، وسبب ذلك أن الوصف إنما يراد به التوضيح –أي في المعارف والتخصيص أي في النكرات– والأجناس أعم من الأشخاص، فلا يتصور تخصيصها لها، فإنك إذا قلت مررت برجل علم أو مال أو فضل ونحوه، لم يعقل مالم يقصده به المبالغة، فإذا قلت بذي علم صح الوصف وأفاد التخصيص»[١].

وقيل في معنى "نون" الحوت وقيل إن لفظ "النون" أشرف لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء في أوائل السور نحو ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم:١]، وقد قيل إن هذا قسم بالنون والقلم وهذا الاشتراك يشرف هذا الاسم وليس في الاسم وليس في اللفظ الآخر وهو الحوت ما يشرفه[٢] (إذ ذهب مغاضبًا) الأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعدما أظلهم فإنه كره رفع العذاب عنهم[٣]، واختيار النظم الكريم للفظ (مغاضبًا) على وزن "مفاعل" اسم فاعل من الرباعي (فاعل) فيها معنى الشدة والقوة وهو نقيض الرضا[٤]، فقد غضب يونس عليه السلام على قومه وهو قول ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير: أنه ذهب عن قومه مغاضبًا

(١) البرهان للزركشي (٢٧٧/٤).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٦٣/٤).
(٣) القرطبي،(٣٣٠/١١).
(٤) مقاييس اللغة (٤٢٤/٤)، لسان العرب(٦٤٨/١).

لربه، إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعد هموه، ورجحه الطبري[١].

(فظن أن لن نقدر عليه) أي نضيق عليه وبتقدير الله عليه عقوبة ، والعرب تقول: «فلان مقدر عليه في الرزق، ومقتر عليه، بمعنى واحد، أي مضيق عليه»[٢].

(فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) الفاء هنا عاطفة وعطف بها لبيان أن التقام الحوت له كان عقب ظنه، وأنه عندما وقع نادى مباشرة من غير مهلة والتقدير فظن أن لن نقدر عليه وخرج فالتقمه الحوت فنادى في الظلمات، والتعبير بالنداء "فنادى" يدل على أن الإنسان وهو متلبس بترك الأولى يكون بعيدًا عن توفيق الله فهو ينادي ولا يناجي.

وقوله (في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، وقيل: ظلمات بطن الحوت والبحر والليل، وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه، فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر[٣].

(أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) أي نزه الله عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا.

وعبر النظم الكريم بقوله بـ"أنت" ضمير الخطاب يدل دلالة قاطعة على قرب المخاطَب من المخاطِب، فكأنه قال: يا قريب الإجابة، فالمقام مقام استعطاف ورجاء فهو يخاطب الله وهو مستحضر ذاته العلية[٤] قاصرًا الألوهية عليه سبحانه، منزهًا ربه عن كل نقص أو عيب تنزيهًا لائقًا بك من أن يعجزك شيء أو أن تظلم أحدًا.

---

(١) جامع البيان (٥١١/١٨)، الجامع لأحكام القرآن (٣٢٩/١١).

(٢) تأويل مشكل القرآن ص(٢٣٣)، وبصائل ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص(١٢٤٣).

(٣) التحرير والتنوير، (١٣٢/٢).

(٤) روح المعاني، (٢٢٦/١).

"سبحانك" مصدر وفعله "سبح" بمعنى نزه (إني كنت من الظالمين) وبعد أن نزه يونس عليه السلام ربه من كل نقص ومنه الظلم، أضافه لنفسه، ولما كان الظلم ليس بالأمر الهين، بل هو ذنب كبير والظلم لا يليق بمقام النبي، لذلك لا يحمل الظلم على ظاهره ، وإنما يجب حمل المعنى على المعنى اللغوي وهو وضع الشيء في غير موضعه مطلقًا ليشمل الذنب وغيره، وبما أن يونس خرج من قومه بدل أن يبقى معهم ويتحمل آذاهم خرج من بين ظهرانيهم بغير إذن من الله على خلاف معتاد الأنبياء ﷺ ظنًا منه أن خروجه هنا إرضاء للرب فلاقى ما لاقى من الشدائد، لأنه وضع الإباق من قومه موضع البقاء معهم أي ظلم نفسه شيئصا مكان شيئاً آخر[1].

(فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) أي بمجرد الدعاء تمت له الإجابة ، لذا عطف بالفاء الدالة على السرعة والتعقيب، وكيف لا يستجيب له سبحانه وهو الرحمن الرحيم بكل خلقه المهم أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا إليه.

كما ورد ذكر حوت يونس مرة أخرى في قوله ﴿**فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾

وردت هذه القصة في سياق توجيه الرسول الكريم ﷺ إلى الصبر لحكم الله دون ضجر أو استعجال، ونهيه عن التشبه بيونس عليه السلام [2] فهو سبحانه يذكر نبيه الكريم بتجربة يونس عليه السلام لتكون له زادًا وصيدًا، وهو خاتم النبيين الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الرصيد الأخير، فيعينه هذا على عبئه الثقيل، عبء هداية البشرية جميعها... بمنهج ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها

(١) يونس عليه السلام ودعوته، ص(١٦٣).

(٢) روح المعاني (١٢٠/٣٠).

من أحوال وأوضاع وتجارب... [١].

قوله: (فاصبر لحكم ربك) أمر إلهي لمحمد ﷺ بالصبر والثبات والمراد بحكم ربك هنا أمره وهو ما حمله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة، وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]، فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضًا، ولا جرم أن الصبر لذلك يستدعي الانتظار للوعد وعدم الضجر حتى يأتي المدد المقدر في علم الله[٢].

(ولا تكن كصاحب الحوت) وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام وهنا نهي للنبي ﷺ الغرض منه تسلية الرسول الكريم وتصبره وشد عزمه على الصبر ووجوب الاستمرار في الدعوة، كما أن فيه تحذير من أن يدعو ربه وقد غلبه الغيظ، وهذا يوضح أن المطلوب منه بهذا النهي هو كظم غيظه وقهره، وألا يجعل له سلطانًا عليه[٣] على أن أكثر ما يفيده النهي هنا هو التهييج والإلهاب للتصميم على معاصاة الكافرين[٤].

يقول ابن هشام من أوجه "لا" أن تكون موضوعه لطلب الترك، وتختص بالدخول على المضارع، وتقتضي جزمه واستقباله، سواء كان المطلوب منه مخاطبًا أو غائبًا أو متكلمًا[٥].

قال الإمام الطبري: ولا تكن كصاحب الحوت الذي حيي في بطنه وهو يونس ابن متى فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبه فحبسته في

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٦٧٠).

(٢) بتصرف من التحرير والتنوير (٢٩/١٠٤).

(٣) فتح القدير، ٠٤/١١٦).

(٤) الكشاف (٤/٥٨٦)، روح المعاني (٩/٢٦).

(٥) مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، ص(٢٧٣)، الناشر المكتبة العربية، بيروت.

بطنه[١].

فنهيه هنا سبحانه لنبيه محمد بأن لا يكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظومًا، فكأنه قيل لا تكن مكظومًا[٢].

والصاحب هو الذي يصحب غيره، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس، لأن الحوت التقمه ثم قذفه فصار "صاحب الحوت" لقبًا له لأن تلك الحالة معية قوية، وجئ بهذا اللقب في هذا السياق – سياق النهي– وذلك للتشديد على محمد ﷺ بعدم الاستعجال وعليه تحمل قومه بخلاف "ذا النون" التي وردت في سياق المدح، كما أن صاحب يضاف بها إلى المتبوع[٣]، تقول: أبو هريرة صاحب النبي ولا تقول: النبي صاحب أبي هريرة.

لذا كان لقب "صاحب" الدال على الصحبة، فناسب في سياق النداء، إذا كان ندائه عليه السلام وقت المصاحبة بين يونس والحوت.

(إذ نادى وهو مكظوم) "إذ" ظرف زمان وهو وجملته متعلق باستقرار منصوب على الحال أي في حالة وقت ندائه ربه، فإنه ما نادى ربه إلا لإنقاذه من كربه الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه، أي لا يكن منك ما يلجئك إلى مثل ندائه[٤].

"مكظوم" أي المحبوس المسدود عليه، يقال كظم الباب أغلقه، وكظم النهر إذا سده، والمعنى: نادى في حال حبسه في بطن الحوت[٥]، وقيل مكظوم: أي مملوء كربًا وهمًا وشدة وغمًا وهو محمول على السكوت ببطن الحوت، فهو لا ينطق من شدة حزنه، ومحبوس عن جميع ما يريد من

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن، (٢٥٣١/١٨).
(٢) التفسير الكبير للرازي، (٩٨/٣).
(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن.
(٤) التحرير والتنوير (١٠٥/٢٩).
(٥) التحرير والتنوير (١٠٥/٢٩).

التصرف إلى أن ألجأه سبحانه بذلك إلى الدعاء والتضرع[١].

وهنا علاقة واضحة بين معنى الكظم وهو حبس الغيظ وبين حبس يونس عليه السلام في بطن الحوت، إذ أن يونس اجتمع عليه حبسان فهو على الرغم من حبس غيظه مما أهمه من قومه، محبوس وفقيد لا يستطيع الحركة، مكره على المكوث في بطن الحوت غير قادر على الشكوى للآخرين، لعدم تمكنه من ذلك وهو في بطن الحوت.

وجيء بهذه الحال جملة اسمية للدلالة على الثبوت، أي هو في حبس لا يرجى لمثله سراح، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس.

(لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) هذه الجملة استئناف بياني ناشيء عن مضمون النهي في قوله (ولا تكن كصاحب الحوت إذا نادى وهو مكظوم) لتضمنه معنى التحذير من الوقوع في كرب مماثل لكرب يونس ثم لا يدري كيف الخروج، لذا تم الفصل بين الجمل.

(تدارك) تفاعل من الدرك بالتحريك وهو اللحاق، وهو هنا مقصود به المبالغة في إدراك نعمة الله إياه.

وقوله: "نعمة" مذكورة مع قوله "تداركه" مع أن لفظ النعمة مؤنث وذلك لأن النعمة اسم مؤنث مجازي ويجوز فيه التذكير والتأنيث[٢] فالفاعل إذا تقدم على فعله جاز مخالفته تذكيرًا وتأنيثًا، وكذلك إذا فصل بين الفعل وفاعله فاصل جاز تذكير الفعل وتأنيثه[٣] وكذا إذا كان المؤنث غير حقيقي جاز تذكير الفعل[٤].

و"تداركه" فعل ماضي مذكر حمل على معنى النعمة، فأسند الفعل دون علامة التأنيث، لأن تأنيث النعمة غير حقيقي و"تداركه" على لفظها[٥] واختلف

---

(١) نظم الدرر (١١٦/٨).

(٢) معاني القرآن للفراء (١٧٨/٣).

(٣) اللمع في العربية لابن جني، ص(١٠٢).

(٤) الأصول في النحو، (١٠٢/٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، (٢٥٣/١٨-٢٥٤)، وإعراب القرآن للنحاس (١٧/٥).

في معنى النعمة فقيل: النبوة، وقيل عبادته التي أسلفت، وقيل رحمة من ربه[١] وقد حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في "تداركه" وهو "الهاء"[٢] وجيء بقوله "نعمة" نكرة للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة.

وجيء بالفعل "تداركه" وهو مراد به الإحاطة بالشيء للدلالة على أن يونس عليه السلام كان محاطًا إحاطة بالغة في العناية بنعمة الله تعالى.

(لنبذ بالعراء وهو مذموم) النبذ: الطرح والترك ، جيء به مبنيًا للمجهول فنبذه من نوع خاص لوم من الله بحاله، وحذف فاعله وذلك مراعاة لخطاب النبي ﷺ ، وذلك لأنها وردت في سياق الثناء على محمد ثم تعليمه الثبات والصبر على دعوته ، ولا يكن كصاحب الحوت، ولما كان ذكر محمد ﷺ حاضرًا ونعم الله قد تداركت أنبياءه احتيج إلى حذف الفاعل وعدم التصريح به ، وقد يكون الحذف أيضًا للعلم به ، فالغاية من الآية الكريمة هي إثبات أن يونس عليه السلام لم يطرح مذمومًا فحذف للعلم به كما أن السياق احتاج لهذا الحذف لأنه لما كان النبذ مصحوبًا بوصف مذموم للمطروح ومن باب الأدب مع الله وتنزيهه سبحانه عن كل أمر مشين لم يصرح بالفاعل.

ومعنى ذلك أن نعم الله على يونس كانت كثيرة فإنعامه عليه سبحانه كان نعمة بعد نعمة إذ أنقذه من ورطة بعد أخرى إنقاذًا خارقًا للعادة، فكان من الممكن أن يقذفه الحوت من بطنه ميتًا فيخرجه الموج إلى الشاطئ ويكون مُثله للناظرين أو حيًا منبوذًا بالعراء لا يجد إسعافًا....

وقوله "مذموم" في موضع الحال، وتلك الحال قيد في جواب لولا إذ تقدير الكلام لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء نبذًا ذميمًا، أي ولكن يونس نبذ بالعراء غير مذموم.

ثم جاءت نعمة الله الكبرى على يونس (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) أي جعله من الصالحين المفضلين من الأنبياء.

---

(١) المصدر السابق، (٢٥٤/١٨).

(٢) الكشاف (٥٩٦/٤)، ومفاتح الغيب (٦١٧/٣٠).

المبحث الثاني

بلاغة لفظ الحوت من القرآن في ضوء السياق

(حوت موسى عليه السلام)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٠-٦٥][1].

هذه الآيات الكريمة تحكي قصة من قصص موسى عليه السلام ولكن هذه القصة تعد لمحة من حياة موسى عليه السلام أو حلقة من سيرته، لم تذكر إلا مرة واحدة في هذه السورة وفي هذا الموضع مثلها في ذلك مثل قصة (بقرة بني إسرائيل) التي لم تذكر إلا مرة واحدة في سورة البقرة.

كما أن هذه القصة لم يرد فيها تحديد المكان الذي وقعت فيه الأحداث إلا قوله تعالى (مجمع البحرين) كما لم يحدد الزمن الذي وقعت فيه في حياة موسى، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل؟ أم بعد خروجه من مصر متجهًا إلى الأرض المقدسة واستكمال رحلته مع بني

---

(١) قيل أن سبب نزولها أن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل يذكرهم النعمة فذكر منها أنه اصطفى نبيهم وكلمه -يعني نفسه- فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى إليه بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى -عليه السلام- وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى، الكشاف للزمخشري، (٢/٤٩٠).

إسرائيل؟... [1]

كما لم يذكر من أسماء الأشخاص سوى اسم سيدنا موسى عليه السلام، أما اسم رفيقه أو خادمه لم يذكره القرآن الكريم بخلاف قوله "فتاه" ولم يذكر اسم العبد الصالح الذي وجده موسى، وما هي صفته أو مهنته بخلاف ما ذكر من قوله تعالى (فوجد عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا).

ولكن بالرغم من ذلك، ومن خلال التفاسير والروايات العديدة التي تفيد بأن المقصود بموسى هو نبي الله موسى عليه السلام حيث إن القرآن يذكر موسى دائمًا بتلك الطريقة، أما فتاه فقيل بأنه يوشع، والعبد الصالح هو الخضر.

ولكن هنا وقفة فطالما القرآن الكريم لم يحدد المكان والزمان واسم العبد الصالح فإن ذلك راجع لحكمة لا يعلمها إلا الله، كما أن ذلك ليس من الأهمية بمكان في سرد القصة وأحداثها والهدف منها، كما أن توضيح ذلك ليس مجال البحث، وإنما مجال بحثنا هو "حوت موسى" تلك المعجزة الخالدة (فاتخذ سبيله في البحر سربا).

مناسبة هذه القصة لما قبلها:

لما جرى ذكر قصة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاغترار بعنصره جهلًا بأسباب الفضائل ومكابرة في الاعتراف بها وحسدًا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلًا لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد أعقب تلك القصة بقصة هي مَثَلُ في ضدها لأن تطلب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما ، وسعيه للظفر بمن يبلغه الزيادة من الكمال، اعترافًا للفاضل بفضيلته، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين.

ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سؤال المشركون عن قصتين قصة

(١) بتصرف من في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، (١٠٣/١٥) ط(٢).

أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقد تقضي الجواب عن القصة الأولى، وما ذيلت به، وأن ينتقل إلى القصة الثانية فتختم بذلك هذه السورة التي أنزلت لبيان القصتين، قَدِّمَتْ لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح، وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى، وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدلوا الناس على أخبار بني إسرائيل وأنبيائهم وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة ، لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان[1].

التحليل البلاغي:

عطف النظم الكريم جملة (وإذ قال موسى لفتاه) على جملة (وإذ قلنا للملائكة) عطف القصة على القصة، والتقدير: وأذكر إذ قال موسى لفتاه، أي أذكر ذلك الزمن وما جرى فيه، وناسبها تقدير فعل (أذكر) لأن في هذه القصة موعظة وذكرى كما في قصة خلق آدم، و(إذ) منصوبة على المفعول به، وهي تشكل في نفس السامع إحساسًا بتكون قصة جديدة، لسيدنا موسى عليه السلام (وإذ قال موسى...) فتدخل أحداث القصة حتى تصل إلى معلم بارز وحدث مهم، كان موسى عليه السلام في لهفة وتشوق له، فظهرت (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) فارتبطت مع الحدث الذي شكل نقطة مركزية في القصة.

قوله: "فتاه" هو الذكر الشاب، والأنثى فتاة، قيل: إنه يوشع ابن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب رضي الله عنه، وسمى فتى لأنه كان يخدم موسى عليه السلام ويتبعه لأن الخدم أكثر ما يكونون فتيانًا، فقيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب، وقد ندبت الشريعة السمحاء إلى ذلك حيث جاء في الحديث ما معناه: «لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي، وليقل فتاي وفتاتي» وقيل أنه سمى فتى لأنه

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣٥٨/١٥).

كان يتعلم من سيدنا موسى عليه السلام والتلميذ يسمى فتى وإن كان شيخًا[١].

فقوله "فتاه" مستعمل مجازًا في التابع والخادم، وفي إضافة الفتى إلى ضمير كليم الله على معنى الاختصاص، كما يقال: غلامه، كما توحي على تواضع كليم الله وحسن معاملته لفتاه[٢]، كما أننا نجد في التعبير بالفتى دون العبد أو الغلام دلالة على تمتعه بالعافية والتحمس للفكرة وحسن الخلق.

ويوكد أسلوب النفي بخصوصيته (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبًا) تصميمه وعزمه الشديد، وقوة قصده لبلوغ هدفه، فهو لن يترك مواصلة السير والبحث حتى يصل إلى ذلك المكان الذي يجد فيه مطلبه وهو (مجمع البحرين) وهذا كناية عن العزم والتصميم على التقائه بذلك العبد الصالح الذي سيأتي ذكره في الآيات التالية.

إنه ابتداء عجيب في باب الإيجاز، فإن قوله (ذلك) يدل على أنه كان في عمل نهايته البلوغ إلى مكان، فعلم أن ذلك العلم هو سير سفر، ويدل على أن فتاه استعظم هذه الرحلة وخشي أن تنالهما فيها مشقة تعوقهما عن إتمامها، أو هو بحيث يستعظمها للعلم بأنها رحلة بعيدة، وذلك شأن أسباب الأمور المهمة، ويدل على أن المكان الذي يسير إليه مكان يجد عنده مطلبه[٣]، فقوله (لا أبرح) أبرح من أخوات (كان) تحتاج إلى اسم وخبر، واسمها الضمير المستتر فيها أما خبرها فمقدر بـ"سائرً" أي لا أبرح سائرًا حتى أبلغ مجمع البحرين، كما أن "أبرح" مضارع (برح) بكسر الراء بمعنى زال يزول واستعير لا أبرح لمعنى لا أترك ولا أكف عن السير حتى أبلغ مجمع البحرين، وحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى –عليه السلام لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق له موقع عظيم في حكاية القصة لإخراجها عن مطروق

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٤٩٠)، وأبو السعود، ج(٥) المجلد(٣) ص(٢٣١)، البحر المحيط أبو حيان (٦/١٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٣٦٠-٣٦١).

(٣) السابق نفسه، (٣٦٠-٣٦١).

القصص إلى أسلوب بديع الحِكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز[١].

قوله (مجمع البحرين)[٢] أي موضع التقائهما، حتى يصيران بحرًا واحدًا وهو مكان من أرض فلسطين والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه، فقد كان لابد لموسى عليه السلام من إشارة تعلمه بوجود ذلك العبد الصالح في ذلك المكان حيث لم يشعر موسى أنه قد مر بذلك المكان لأنه لا يعرفه «ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه»[٣].

وقوله: (أو أمضي حقبا) الحقب جمع حقبة وهي الفترة الطويلة من الزمن، وقد قدروها بحوالي سبعين أو ثمانين سنة، ويكون المعنى لا أترك السير على هذا المكان ولو سرت مائتين وعشرة سنين لأن موسى عليه السلام كان مشوقًا إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه، وقد أخبره ربه بأن علمه علم من الله لا من البشر[٤].

وقد عطف (أمضي) على (أبلغ) بـ(أو) فصار المعطوف إحدى غايتين بلوغ مجمع البحرين، والمضي حقبا، فالغاية نوعان وأو تفيد التنويع ، فلا يصلح للعطف هنا غيرها من حروف العطف، فصار مضيه لإحدى غايتين للإقلاع عن السير، أي إما أن أبلغ المكان أو أمضي زمنًا طويلًا، ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين، والفاء طلبته عنده لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضية زمنًا يتحقق فيه الوصول إلى مجمع البحرين، فالمعنى: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو أسير أزمانًا طويلة، فإني بالغ مجمع البحرين لا محالة، وكأنه أراد بهذا تأسيس فتاه من محاولة رجوعهما، كما دل

(١) التحرير والتنوير، (٣٦٢).
(٢) أنظر في ظلال القرآن الكريم(١٠٣/١٥).
(٣) في ظلال القرآن الكريم (١٠٤/١٥).
(٤) تفسير الشعراوي (٨٩٤٧/١٤).

عليه قوله بعد "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه صحة العزم حتى يكونا على عزم متحد(١).

ونلمح هنا إسناد عدم البراح والمضي حقبا إلى كليم الله –وحده– دون إسناده لفتاه مع أنه يشاركه في الرحلة ، وفي ذلك دلالة على أن موسى هو صاحب هذه الرحلة إن سار سار معه فتاه وإن أقلع عن السير أقلع معه فتاه لذا لم يقل (حتى نبلغ مجمع البحرين أو نمضي حقبا) فهو خادمه وتابعه يسير معه ويتبعه في كافة أحواله.

ثم نأتي لإشارة موسى عليه السلام حيث تبدأ قصة الحوت مع موسى وفتاه، (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا)

الفاء هنا للتفريع وهي الفاء الفصيحة، فهي تفصح عن محذوف مقدر ينسحب عليه الكلام، أي: فسارا حتى بلغ مجمع البحرين فلما بلغا...، ودليل الحذف هو ما ينبئ عنه: لا أبرح حتى أبلغ، وضمير بينهما، عائد إلى البحرين، أي محلاً يجمع بين البحرين، وأضيف (مجمع) إلى (بين) توسعًا فإن (بين) اسم لمكان متوسط شيئين، وشأنه في اللغة أن يكون ظرفًا للفعل، ولكنه قد يستعمل لمجرد مكان متوسط إما بالإضافة كما هنا، أو بدون إضافة توسعًا(٢).

قوله: (نسيا حوتهما) أي حدث النسيان منهما معًا، ولم يكن النسيان وقت البلوغ، ولكن تبين النسيان في ذلك، لأنهما بحثا عنه فلم يجداه، ولم يكن الحوت ميتًا، بل كان حيًا، ولذا لما نسياه (اتخذ طريقه في البحر سربا)(٣).

والظاهر نسبة النسيان إلى موسى وفتاه، وقيل: كان النسيان من أحدهما وهو فتى موسى نسى أن يُعلم موسى أمر الحوت إذ كان نائمًا، وقد أحس

---

(١) التحرير والتنوير، (٣٦٢/١٥).

(٢) السابق نفسه، (٣٦٦/١٥).

(٣) زهرة التفاسير، (٤٥٥٥/٩).

يوشع بخروجه من المكتل إلى البحر ورآه قد اتخذ السرب، فأشفق أن يوقظ موسى عليه السلام، وقال أؤخر إلى أن يستيقظ، ثم نسى أن يعلمه حتى ارتحلا وجاوزا ، وقد يسند الشيء على الجماعة وإن كان الذي فعله واحد منهم، وقيل: هو على حذف مضاف أي نسى أحدهما، وقال الزمخشري: أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسى يوشع أن يقدمه، ونسى موسى أن يأمر فيه بشيء(١).

وبالرغم من أن حمل الحوت كان منوطًا بفتى موسى عليه السلام وقد نسيه، إلا أنه كان على موسى أن يذكره به، فرئيس القوم لابد أن ينتبه لكل جزئية من جزيئات الركب، وكانت العادة أن يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده، وينظر لعل واحدًا نسى شيئًا، إذن كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير، ويُذكر فتاة بما معهم من لوازم الرحلة(٢).

وجيء بالحوت معرفًا "حوتهما" حيث أسند على ضميرهما، ولم يقل فنسيا الحوت وذلك زيادة في التشويق والإثارة وهذا من خصائص القصص القرآني.

وقد عطف قوله (واتخذ سبيله في البحر سربا) على قوله (نسيا حوتهما) بالفاء فيه دلالة قاطعة على أن الاتخاذ وقع عقب النسيان مباشرة.

ونرى في هذه الآية الكريمة صورة فنية وتشكيل تصويري متعدد المنابع والزوايا، فالفتى ذهب ليحضر الحوت المعد للطعام، فعندما فتح الوعاء وإذا بالحوت يقفز إلى الماء فتتملكه الدهشة، فيخترقه بحركة غريبة يصفها الفتى بأنها (سربا) أي خرقًا في الماء غير ملتئم، فالله تعالى أحيا الحوت وأمسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقًا لا يلتئم(٣).

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٢٠١/٧).

(٢) تفسير الشعراوي (٨٩٥٠/١٤).

(٣) نظم الدرر للإمام البقاعي (٤٨١/١٤).

وتشكل هذه الكلمة بأصواتها وتركيبها "سربا" مركز الصورة الفنية في حركة تكثيف وإيحاء، الفتى لم يحدد وصفًا ولا تصويرًا أدق من كلمة (سربا) فما هو السر الكامن فيها؟

الأصوات المكونة لها هي (السين – الراء – الباء) فالسين حرف احتكاكي مهموس، ومخرجه من بين الأسنان في حركة كأنه يشق حاجزًا يمر من خلاله، والراء صوت مجهور قوي فيه حركة متكررة، الباء يتبعها الألف المطلقة بصوت انفجاري ومن أقصى حركة متكررة، الباء يتبعها الألف المطلقة صوت انفجاري ومن أقصى المخارج، ويمثل ذلك حركة الحوت عندما انطلق إلى ماء البحر، فيشق سطحه حركة قوية مبتعدًا حتى اختفى، تاركًا خلفه، في ترتيب وتماثل بين الحركتين للحوت والوصف الصوتي للفظ المعبر عن تلك الحركة، ولذلك فإن المرتكز الصوتي للصورة تتجلى في تناغم يحتاج إلى تذوق ومران للغوص في هذه الظاهرة اللغوية التي كشف بعضًا منها القدماء، ولكنها تحتاج إلى أن توظف في الدراسات النقدية بشكل منهجي.

والخلاصة أنهما تركا الحوت الذي كانا يحملانه لكي يكون طعامًا لهما في رحلتهما تركاه دون قصد منهما وهذا هو معنى نسيانهما له... كيف كان هذا الحوت الذي كان يحملانه ثم نسيانه؟ هل كان طازجًا أم لم يكن جاهزًا للأكل؟، أم كان مشويًا؟ هل كان الحوت سمكة واحدة أم مجموعة أسماك؟[1].

لم يوضح القرآن ذلك ولكن يفهم من سياق الآيات أن هناك أمر غير عادي قد وقع في شأن الحوت بدليل قوله (واتخذ سبيله في البحر عجبا) معنى ذلك أن الحوت الذي كان معدًا لغذاء موسى وفتاه قد رجع إلى البحر (اتخذ سبيله في البحر عجبا) فهنا روايات كثيرة تفسر اتخاذ الحوت سبيله في البحر عجبا منها بأنه قيل: «كان الحوت سمكة مملوحة، وقيل: أن يوشع حمل

(١) الحيوان في القرآن الكريم، د/ فوزية يوسف بغدادي، إشراف دكتور/ عبد العظيم المطعني، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص(١٩١-١٩٢).

الحوت والخبز في المكتل فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت، وروى أنهما أكلا منها، وقيل توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء... وقيل ما كانت إلا شق سمكة»[١].

أما صاحب الظلال فيرجح أن هذا الحوت كان مشويًا حيث يقول: «والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشويًا، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سربًا كان أية من آيات الله لموسى، يعرف بهما موعده، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحر ما كان في هذا عجب، ويرجح هذا الوجه أن الرحلة كلها مفاجآت غيبية فهذه إحداهما»[٢].

وكون الحوت مشويًا أم نيئًا هذا لا يعنينا في شيء، ولكن ما يهمنا في هذا الأمر بأن هناك أمر عجبا، أمر غير عادي قد حدث بالنسبة للحوت، فالمفترض أنه في مكتل، ولكنه خرج من مكتلة (واتخذ سبيله في البحر سربا) فهذا أمر غير عادي، «فلو كان الحوت حيًا أصلًا ومن الممكن أن يتخذ سبيله في البحر لما كان هناك عجب ولو لم ينسيا الحوت لما كانت هناك أمارة على مطلب سيدنا موسى، ولكان لابد من أن تكون هناك أمارة أخرى في القصة حتى يرجع موسى إلى المكان الذي فيه مطلبه، ولكن القرآن أوضح أن نسيانهما للحوت هو الأمارة بدليل قول موسى عندما طلب الحوت من فتاه وأجابه فتاه بأنه قد نسيه عند الصخرة: (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) فقال موسى: (ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا)[٣].

ثم جاء قوله: (فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غذاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا

---

(١) الكشاف للزمخشري، (٢/٤٩١).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب، ط(١)، (١٥/١٠٤).

(٣) الحيوان في القرآن الكريم، ص(١٩٤-١٩٥).

نصبا) فهو لم يقف عند مجمع البحرين بل اجتازه، اجتازا سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب، لذا طلب موسى الطعام، وهنا تذكر الفتى ما كان من نسيان الحوت.

وقد حذف مفعول "جاوزا" للعلم به أي جاوزا مجمع البحرين، وهو من الإيجاز بالحذف، كما اسند "جاوزا" إلى ضمير موسى وفتاه ولم يقل جاوز "موسى" فقط، كما في قوله (لا أبرح) (أمضي) وذلك لأن قوله (أبرح – أمضي) قراران اتخذهما موسى عليه السلام فهو القائد لهذه الرحلة وفتاه يتبعه في كافة قراراته، لذا جاءت على هذا النحو، أما قوله (جاوزا) فيه شركة بين الطرفين، فكل من موسى وفتاه يسيران في تلك الرحلة وغير قاصرة على موسى وحده لذا كان الإسناد كما عبر النظم الكريم بقوله: (آتنا غداءنا) ولم يقل (آتني غذائي) في هذا دلالة على حسن صحبة سيدنا موسى عليه السلام لفتاه وحسن معاملته له، فهو نبي كريم تأبى نفسه أن يأكل بمفرده دون فتاه.

(لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) تصوير بلوغ التعب والنصب من موسى وفتاه مبلغًا كبيرًا، وأكد الحكم بـ(اللام) و(قد) ، وإن قيل في أمر حسي في مجاوزة مكان معين إشارة إلى أنه «بالمنهج ألصق، وله ألزم، فالمرء في راحة وسعادة ما كان سائرًا على الطريق السوي، فإذا اختلطت عليه الأمور، وحاد عن جادة الطريق ناله التعب وأدركته الحيرة»[1].

كما أنه أضاف اللقاء إليهما "لقينا" ولم يقل (نزل بهما التعب)، لأنه نصب مختار لهما ولطلبهما[2].

ثم يأتي قوله: (قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا).

---

(١) مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية دراسة تحليلية تربوية، د/ طلعت محمد عفيفي، ص(٢٢٢).

(٢) زهرة التفاسير، (٤٥٥٦/٩).

نسى غلام موسى عليه السلام ذكر الحوت، لذا لجأ لأسلوب ومدخل لائق لذكر أحداث القصة فلا يباغته ولا يباشره بما حدث وإنما لجأ لأسلوب الاستفهام "أريت" غرضه التقرير وليس الاستفهام بمعناه الحقيقي، فالاستفهام في هذا السياق موجه من فتى موسى لرفيق دربه، أي أخبرني إذ لجأنا إلى الصخرة عند مجمع البحرين لنستريح (فإني نسيت الحوت) فالعلم متحقق بالنسبة للسائل ومعرفة المسئول عنه، فلم يعد الاستفهام من باب الحقيقة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهد الكاملة، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب: أرأيت ما نابني، يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه، لا استخباره عن ذلك(١).

كما نلحظ حسن الأدب في الحوار المتمثل على لسان فتى موسى عليه السلام (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت) حيث انتقل من الجمع (أوينا) إلى المفرد (فإني نسيت) مع أن كليهما قد نسيا، ولكن أدبًا من الفتى لم يجعل موسى عليه السلام شريكًا له في النسيان وليس هذا بغريب على فتى موسى، لأنه لو لم يكن متصفًا بتلك الأخلاق الفاضلة لما حظى بصحبة كليم الله، وجاء رد موسى عليه السلام بعد ذلك مماثل لرد الفتى، في قوله (ذلك ما كنا نبغ) حيث لم يقل ذلك ما كنت أبغي ، بل أشركه معه في الغرض وهذا من طيب خلق موسى وحسن معاملته لفتاه وحسن أدب من الفتى، وفي هذا تعليم للأمة كيف تخاطب نبيها، وأين تقف من هديه؟ تعريض بمن أعرضوا وتولوا.

فإن قيل: كيف نسى يوشع ذلك ؟ ومثله لا ينسى لكونه أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها، فالنسيان هو معجزة ودليل لموسى عليه السلام، أما معنى النسيان أو كيف كان نسيانهما للحوت فقيل: نسيا تفقد أمره وما يكون

(١) بتصرف من إرشاد العقل، (٣/٥٣٦) وما بعدها.

منه مما جعل أمارة على الظفر بمطلبه، وقيل: نسي يوشع أن يقدمه ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء[١] فهما تركا الحوت الذي كانا يحملانه للطعام، تركاه دون قصد منهما وهذا هو معنى النسيان.

وفي قوله "إذ" حينما نطق بها فتى موسى نجدها تحدث في النفس تشوقًا ولهفة لمعرفة ما سيقال فيأتي قوله (آوينا إلى الصخرة...) فعلم الأمر وفهم المراد.

وقد اختص الحديث عن الصخرة، بالرغم من أن الصخرة لم تذكر فيما سبق من أحداث، إلا أنها جاءت معرفة، وذلك لما لها من خصوصية متمثلة في أنها كانت مكان الملتقى، فإن لم تكن الصخرة قد ذكرت صراحة، لكن سياق الأحداث ومعرفة الخلفية للقصة تظهر طبيعة الصخرة ومهمتها فيها.

ونلمح قوله: "نسيت" وفي الآية قبلها قال "نسيا" فما الفرق؟

«ذلك لأن الأولى إخبار من الله، والثانية كلام فتى موسى، فكلام الله تبارك وتعالى، يدلنا على أن رئيسًا متبوعًا لا يترك تابعه ليتصرف في كل شيء، لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير في شيء، وقد ينشغل ذهنه بأشياء أخرى تنسيه ما هو منوط به من أمر الرحلة»[٢].

وقوله: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) هذا نسيان آخر غير النسيان الأول، فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه، و(أن أذكره) بدل اشتمال من ضمير (أنسانيه) لا من الحوت والمعنى ما أنساني أن أذكره لك إلا الشيطان، فالذكر هنا ذكر اللسان، ووجه حصر إسناد هذا النسيان إلى الشيطان بطريق القصر، أن ما حصل له من النسيان لإخبار موسى عليه السلام بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب، مع شدة الاهتمام بالأمر المنسي وشدة عنايته بإخبار نبيه به، ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تنسى يتعين أن

(١) الكشاف، (٦٢٥).

(٢) تفسير الشعراوي، (٨٩٥٢/١٤).

الشيطان ألهاه بأشياء عن أن يتذكر ذلك الحادث العجيب، وعلم يوشع أن الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة، فهو يصرف عنها، ولو بتأخير وقوعها طمعًا في حدوث العوائق[١].

وقد أسند النسيان إلى الشيطان (وما أنسانيه إلا الشيطان) لأنه من وساوسه، ففيه مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى سببه، والصورة تصور قوة وسوسة الشيطان وشدة تأثيره، ولذا غلفت العبارة بأسلوب القصر عن طريق هو أبلغ الطرق وأقواها، ومما نعقد اليد عليه عدم كشف التمهيد عن الهدف الذي قصده موسى، لأن أحداث القصة سوف تكشف عنه بعد، ومثل هذا السياق يتصف بالإيجاز والإثارة والتشويق قضاء لحق البلاغة الدالة على أن الكتاب قيم لا عوج فيه[٢].

اعتذر فتى موسى عما بدر منه من نسيان الحوت (وما أنسانيه إلا الشيطان) الذي لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه، ثم أكد كلامه هذا من خلال الطباق الحاصل بين قوله (نسيت – أذكره) فجاء هذا الطباق للتنبيه وإثارة الاهتمام، إذ كيف نسى الحوت وهما خرجا لهذا الغرض بالذات، وهو أن يريا علامة تدلهما على العبد الصالح (الخضر).

(واتخذ سبيله في البحر عجبا) معطوفة على جملة (فإني نسيت الحوت) وهي بقية كلام فتى موسى عليه السلام أي اتخذ سبيله في البحر، وسبح بعد أن كان ميتًا زمنًا طويلًا، وقوله هنا "عجبا" بينما في الآية السابقة قال: "سربا" وهذه حالة الحوت، فهنا يقول "عجبا" لأنه يحكي ما حدث ويتعجب، وكيف أن الحوت المشوي تدب فيه الحياة حتى يقفز من المكتل[٣] كما أن قوله: عجبا

(١) التحرير والتنوير، (٧٦٨/٥).

(٢) بلاغة الاستهلال بالحمد في السور الخمس، رسالة دكتوراه، د/ شحاتة عبد الرازق أبو شوشة، (٢٠٢).

(٣) تفسير الشعراوي، (٨٩٥٢/١٤).

جملة مستأنفة ، وهي من حكاية قول الفتى، أي أعجب له عجبا، فانتصب على المفعول المطلق الآتي بدلًا من فعله ، وقد فصلت جملة "قال أرأيت..." عما قبلها لأنه لا يصح عطفها على "قال" الأولى لاختلاف المسند إليه فيهما، ففاعل "قال" الأولى هو موسى عليه السلام وفاعل "قال" الثانية هو "فتاه" كما لا يصح عطفها على "آتنا" وذلك لأنها لو عطفت عليها لكانت من مقول موسى عليه السلام، وليس الأمر كذلك، كما أن جملة "آتنا" انشائية و"قال" خبرية ولا يجوز عطف الخبر على الإنشاء لذا تم الفصل لكمال الانقطاع مع الإيهام خلاف المراد.

كما أن قوله (وما أنسانيه إلا الشيطان) حسن أدب سبب النسيان إلى المتسبب فيه بوسوسته، وأن أذكره، بدل اشتمال من الضمير العائد على الحوت، والظاهر أن الضمير في (واتخذ سبيله في البحر عجبا) عائد على الحوت، كما عاد في قوله (فاتخذ سبيله في البحر سربا) وهو من كلام يوشع، وقيل الضمير عائد على موسى أي اتخذ موسى، ومعنى عجبًا أي تعجب من ذلك أو اتخاذ عجبًا وهو أن أثره بقى إلى حيث سار، وقوله (ما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه(١).

أدرك موسى أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه له للقاء عبده الصالح، وأنه هناك عند الصخرة، ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه، ويبدو أن هذا اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه، فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه، ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح في المشاهد التالية للقصة(٢).

في هذا الموقف الذي كان فيه موسى وفتاه وقد تمكن التعب والنصب منهما فلم يجد تعبيرًا عما بداخلهم إلا استخدام اسم الإشارة (هذا) فاللغة التعبيرية باسم الإشارة للقريب أدق، لكنه استخدم (ذلك) في قوله: (قال ذلك ما كنا نبغ وارتدا على آثارهما قصصا) وهي اسم إشارة للبعيد، فمقصد موسى أي

(١) البحر المحيط في التفسير، (١٩٩/٧).
(٢) في ظلال القرآن (٢٢٧٨/٤).

ذلك ما نطلب، فهذا المكان الذي فقد فيه الحوت هو المكان المراد، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى، وهكذا عرف عنوان المكان وهو مجمع البحرين، حين يلتقي البحران فيصيران بحرًا واحدًا.

وقوله (قال ذلك) جواب عن كلامه، ولذا فصلت عما قبلها وذلك لشبه كمال الاتصال، والإشارة بذلك إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت، ومعنى كونه المبتغىَ أنه وسيلة المبتغى، وإنما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت.

إن الناظر للموقف والحالة النفسية التي عليها موسى عليه السلام من تلهف إلى المتلقي، فعندما ظهرت علاماته لم يكن أمام موسى عليه السلام إلا أن يبادر مسرعًا يختصر الزمن ليصل إلى المكان، فقال (نبغ) بالحذف فكان كلامه معبرًا عن حاله تلك.

لم يغضب موسى عليه السلام من نسيان فتاه للحوت بالرغم من أنه كان جائعًا (آتنا غذاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) بل لقد تهلل بشرًا وسرورًا، فقد أوشك أن يحصل على مطلبه لأنه أدرك أن نسيان الحوت عند الصخرة معناه أنه جاوز الموعد الذي حدده ربه له للقاء عبده الصالح وأنه هنالك عن الصخرة، لذا فقد عاد متلهفًا متشوقًا للقاء الموعود يقتفي أثر قدماه في الأرض هو وفتاه حتى لا يضل الطريق الذي سلكه أولًا وترك أمر الغذاء، فهناك ما هو أهم من الغذاء هناك مطلبه.

هناك سيكون الامتحان لمعرفة وكشف مدى علمه بالنسبة لعلم العبد الصالح، سيكون ذلك في المكان الذي نسى فيه الحوت، وهذا هو الغرض من ذكر الحوت، وهكذا وبفضل الحوت الذي كان أماره لموسى على مطلبه ، استدل موسى على العبد الصالح الذي عرف بمصاحبته له في بقية القصة – كما ورد في القرآن، أن لديه علم لم يكن يعرفه موسى عليه السلام، فقد أجرى الله على يديه المعجزات وما ذلك إلا كرامات من عند الله، ليعلم موسى أن هناك من هو أعلم منه وهو العبد الصالح ، وهناك من أعلم من ذلك العبد الصالح وهو

الله سبحانه الذي أعطى ذره من علمه لعبده الصالح[١].

قوله (فارتدا على آثرهما قصصا) عطف بالفاء للتعقيب والسرعة ، فالرجوع كان بمجرد سماعه الأمر من الفتى، أي فرجعا أدراجهما من حيث جاءا، وقوله (قصصا) منصوبة على المصدرية بإضمار يقصان أو أن يكون في موضع الحال أي مقتصين[٢].

فالإشارة والفاء في (فارتدا) دلالة الإرتداد القوية، تصوير لرغبة عارمة امتلأت بها هذه النفس الكريمة في الحصول على ما قصدت إليه، وهذه تربية للعلم على خلق الصبر تجاه تعلم الكتاب وسنة النبي ثم العمل بهما.

واستخدام هذه اللفظة دون غيرها "فارتدا" لبيان حالة التلهف التي سيطرت على موسى عليه السلام والشوق الكبير لملاقاة العبد الصالح، فقد تحمل موسى وفتاه عناء ومشقة السفر لأجل هذا اللقاء الموعود، الذي كانت علامته ضياع الحوت عند صخرة مجمع البحرين، وما الغرض من نسيان الحوت إلا ليتحمل موسى ويتعلم الصبر، فقد جعل المولى سبحانه الحوت يعود سربًا للبحر ثم ينسى الفتى وبعد ذلك يتذكر ما حدث ، وما ذلك إلا ليعطي درسًا لموسى عليه السلام إذا كان من الممكن أن يحدث لقاء موسى مع الخضر عليهما السلام دون الحاجة للعودة في طريق أمضى فيه موسى وقته، ولكن كان هذا الرجوع وتحمل المشقة تعليمًا من الله تعالى لموسى عليه السلام الصبر، وقد كان موسى صابرًا في سبيل تحصيل العلم، فما حدث من ارتداد موسى وفتاه في البحر فيه دلالة على صبر لاتباع ذلك العبد الصالح لينهل من علمه، ولكن لم يتحمل ولم يصبر موسى على إتباع عبدًا أتاه الله علمًا من لدنه، وإن كان نفاد صبره عليه السلام لدافع قوي لم يستطع تحمله.

---

(١) الحيوان في القرآن، (١٩٥-١٩٦).

(٢) التفسير المحيط، (٢٠٣).

المبحث الثالث

بلاغة لفظ (الحوت) في القرآن في ضوء السياق

(حوت أهل السبت)

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

تتحدث سورة الأعراف عن النعم التي أنعمها الله تعالى على بني إسرائيل لما صبروا في أول الأمر، يقول تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف:١٣٧]، ثم تتوالى الآيات لتتحدث عن المخالفات التي فعلها بنو إسرائيل مع نعم الله تعالى عليهم المتوالية كالمن والسلوى، وهو ما يذكر بعدم صبرهم حتى على هذه النعم، فسألوا ما هو أعلى منها، ثم تأتي الآية التي جاء فيها اسم حيتان ، لتبين أن الله تعالى أنعم على هذه القرية بنعمة عظيمة وهي أنها حاضرة البحر، أي مجاورة للبحر ييسر لها الصيد، وكان من لوازم هذا التيسير أن يمنعوا الصيد يوم السبت ليدركوا نعمة سهولة الصيد بقية الأيام، لكن أهل هذه القرية لم يصبروا على ذلك، ولكن بعض منهم صبر على إرشاد المخطئين ، وهناك من لم يصبر على تقديم النصح لهم، ويذكر السياق عقاب هذه الطائفة العاصية ، وهو جعلهم قردة ولعل في هذا العقاب مناسبة لجنس المعصية، فتحويلهم قردة بالذات لم يعلم من أن هذا الحيوان معروف بكثرة حركته، فهو لا يمكث على حال ثابتة، فكأن عدم صبرهم وعدم مكثهم يوم السبت جزاؤه كثرة الحركة دون مكث أو صبر على حالة واحدة[1].

---

(١) بتصرف من المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن المجيد، أسماء الحيوان وأعضائه، د/ محمد سامي عبد السلام، الناشر مكتبة بورصة للنشر والتوزيع القاهرة، ط(١)، ٢٠١٣م، ص(٦٦-٦٧).

وفي قوله (وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر)

عدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل إلى أسلوب المواجهة لذاريهم التي كانت تواجه رسول الله ﷺ فقوله (أسألهم) أمر من الله لنبيه الكريم أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم، وقد كانت هذه القصة ليست مما كتب في توراه اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنها مما كان مرويًا عن أخبارهم، ولذلك فتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيه ﷺ عليها(١).

فالقصة صارت معلومة للرسول ﷺ من قبل الله تعالى، وإنما المقصود من ذكر هذا السؤال أحد أشياء:

الأول: أن المقصود من ذكر هذا السؤال تقرير أنهم كانوا قد أقدموا على هذا الذنب القبيح والمعصية الفاحشة، تنبيهًا لهم على أن إصراراهم على الكفر بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس شيئًا حدث في هذا الزمان، بل هذا الكفر والإصرار كان حاصلًا في أسلافهم من الزمان القديم.

الثاني: أن الإنسان قد يقول لغيره هل هذا الأمر كذا وكذا؟ ليعرف بذلك أنه محيط بتلك الواقعة، وغير ذاهل عن دقائقها، ولما كان النبي ﷺ رجلًا أميًا لم يتعلم علمًا، ولم يطالع كتبًا، ثم إنه يذكر هذه القصص على وجهها من غير تفاوت ولا زيادة ولا نقصان كان ذلك جاريًا مجرى المعجز(٢).

فالسؤال هنا للتقرير والتقريع والتوبيخ بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي.

قوله (عن القرية) لم يذكر اسم القرية سوى أنها كانت حاضرة البحر، فهي معروفة للمخاطبين، (التي كانت حاضرة البحر) أي التي هي مجاورة للبحر وعلى مقربة منه، وعرف المسند إليه باسم الموصول لتتميز هذه القرية

(١) التحرير والتنوير، (١٤٦/٩).

(٢) مفاتح الغيب، (٣٩٠/١٥).

فقد ميزها الله وأنعم عليها بكونها حاضرة البحر حيث يسهل الصيد ولا توجد فيه أي صعوبة.

(إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم) (إذ) ظرف متعلقة بسلهم، ولا يتصور لأن إذ ظرف لما مضى وسلهم مستقبل، ولو كان ظرفًا مستقبلًا لم يصح المعنى، لأن العادين وهم أهل القرية مفقودين، فلا يمكن سؤالهم والمسئول من أهل القرية العادين.

وقال الزمخشري: "إذ يعدون" يدل على القرية والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل وسلهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت وهو من بدل الاشتمال[١].

واختيار صيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك منهم، وتعدية فعل "يعدون" إلى "في السبت" مؤذنة بأن العدوان لا يتعلق به غرض البليغ ما لم يكن لذلك الوقت مزيد اختصاص بالفعل ، فيعلم أن الاعتداء كان منوطًا بحق خاص بيوم السبت، وذلك هو حق عدم العمل فيه، إذ ليس ليوم السبت حق في شريعة موسى سوى أنه يحرم العمل فيه، وهذا العمل هو الصيد كما تدل عليه بقية القصة.

وهدف في للظرفية لأن العدوان واقع في شأن نقض حرمة السبت[٢]، وقوله (إذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون أي يعدون حين تأتيهم حيتانهم، والحيتان جمع حوت، وهو السمكة، ويطلق الحوت على الجمع فهو مما استوى فيه المفرد والجمع، وأكثر ما يطلق الحوت على الواحد والجمع حيتان.

وفي إضافتها إليهم دلالة على الإشعار باختصاصها به لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص لخارقة العادة، أو لأن المراد بها الحيتان الكائنة في تلك الناحية[٣].

---

(١) البحر المحيط، (٢٣/٥).

(٢) التحرير والتنوير، (١٤٦/٩).

(٣) تفسير أبي السعود، (٢٨٤/٣).

ويبدو أن نفاذ صبر أهل القرية حاضرة البحر كان له دافع قوى يفهم من وصف حال الحيتان يوم السبت بوصف "شرعًا"، يقول ابن عباس: «أي ظاهرة على الماء، يعني أنها قريبة من سطح البحر أمنة من أن تصطاد، أي أن الله ألهمها ذلك لتكون آية لبني إسرائيل على احترام السبت من العمل فيه هو من أمر الله، وقيل معنى شرعًا: متتابعة مصطفة أي فهو كناية عن كثرة ما يرد منها يوم السبت[١].

فهذا اللفظ يصور منظر الحيتان في البحر وما كانت عليه ، وما كانت تثيره من مغريات ودوافع لفعل المحرم، وعدم تحمل الصبر في ترك الصيد يوم السبت.

ولكن كيف وقع لهم هذا، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة، وتداورهم هذه المداورة؟... هي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله... والذين لا يعلمون ينكرون أن تجرى مشيئة الله بغير ما يسمونه هم "قوانين الطبيعة" والأمر في التصور الإسلامي ليس على هذا النحو... إن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون، وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة، ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين، لا تملك أن تجري إلا بها، لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة... وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده قد اقتضت ثبات هذه القوانين، فإنه لم يكن معنى هذا نقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين، فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفًا لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر[٢].

وقيل في معنى "شرعا" أيضًا أنها وصف من شرعت الإبل نحو الماء أي دخلت لتشرب، وهي إذ رعها الرعاة تسابقت إلى الماء، فالتظت وتراكمت وربما دخلت فيه، فمثلت هيئة الحيتان في كثرتها وتنوعها في الماء بالنعم

(١) التحرير والتنوير، (١٤٧/٩).
(٢) في ظلال القرآن، (١٣٨٣/٠٣).

الشارعة على الماء وحسن ذلك وجود الماء في الحالتين، وهذا أحسن تفسير والمعنى أنهم يعدون في السبت ولم يمتثلوا أمر الله بترك العمل فيه، ولا اتعظوا بآية إلهام الحوت أن يكون آمنًا فيه.

وقوله "يوم سبتهم" إضافة اسم اليوم إليهم لأنه اليوم الذي فرض عليهم ألا يقوموا بالصيد [١] فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر إلى السبت المقبل، بلاء ابتلوا به[٢].

ولفظ سبت قيل أنه مصدر (سَبَتَ) إذا قطع العمل بقرينة ظاهر قوله: (ويوم لا يسبتون) فإنه مضارع سبت، فيتطابق المثبت والمنفي فيكون المعنى أنهم إذا حفظوا حرمة السبت، فأمسكوا عن الصيد في يوم السبت، جاءت الحيتان يومئذ شرعًا آمنة، وإذا بعثهم الطمع ورفه الصيد فاعدوا له آلاته، وعزموا على الصيد لم تأتهم وجوز أن يكون لفظ (سبتهم) بمعنى الاسم العلم لليوم المعروف بهذا من أيام الأسبوع، وإضافته إلى ضميرهم اختصاص بهم بما أنهم يهود، تعريضًا بهم لاستحلالهم حرمة السبت، فإن الاسم العلم قد يضاف بهذا القصد.

وعلى الوجهين يجوز في قوله (ويوم لا يسبتون) أن يكون المعنى والأيام التي لا يحرم العمل فيها، أي أيام الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتان، وأن يكون المعنى وأيام السبوت التي استحلوها، فلم يكفو عن الصيد فيها ينقطع فيها إتيان الحيتان، ولا يخفى أن لا يثار هذا الأسلوب في التعبير عن السبت خصوصية بلاغية ترمي إلى إرادة كلا المعنيين[٣].

وقد اختبرهم الله تعالى ليكشف حالهم ويهذبهم بأمرين بتحريم الصيد يوم السبت ليفطموا شهواتهم ونفوسهم الشرهة، وأنه تعالى ذكر أنهم كان يعدون في

---

(١) زهرة التفاسير، ج(٥)، ص(٢٧٧٨).

(٢) التفسير الوسيط للواجدي، (٢/٤١٩/٤٢٠).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/١٥٠).

السبت فمنهم من كان يتناول المحرم غير مأثم ولا متحرج ومنهم من يحتال، لذا جاء بحكمة تحريم الصيد يوم السبت، وإتيان حيتانهم شرعًا فيه (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) أي كهذا الذي صنعناه معهم من تحريم السبت ومجيء الحيتان فيه، نعاملهم معاملة المبتلى المختبر لتهذب نفوسهم وتربي إرادتهم، وذلك بسبب استمرارهم على الفسوق وانحراف النفوس وخضوعها لشهواتها، ولأجل تعويدهم ضبط النفس، والصبر على الحرمان، فإن الصبر نصف الإيمان.

وأن الله تعالى وصاهم، ودعاهم إلى الهدى، وشرع لهم ما يصقل نفوسهم ويهدي قلوبهم ولكن كتب عليه الشقوة فلم يهتدوا[1].

(كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) أي مثل ذلك البلاء العجيب نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ويؤاخذهم به، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها، والتعجب منها، وإسناد الابتلاء لله سبحانه (نبلوهم) مجازًا عقليًا أي ليبلو الناس تمسكهم بشرائع دينهم، (بما كانوا يفسقون) الباء للسببية، و "ما" مصدرية أي بفسقهم وتوغلهم في العصيان وإصرارهم على الزيادة منه، فإذا عرض لهم داعية خفوا إليه، ولم يرقبوا أمر الله تعالى، "يفسقون" أي بسبب فسقهم.

المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل، لكن لا في تلك المساواة، فإن فسقهم فيها لا يكون سببًا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون وما يذرون وقيل "كذلك" متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل ما تأتيهم يوم سبتهم[2].

والجملة بعده حينئذ استئناف بياني لجواب عن سؤال من يقول: ما فائدة هذه الآية مع علم الله بأنهم لا يروعون عن انتهاك حرمة السبت.

---

(١) تفسير أبي السعود، (٣/٢٨٥).

(٢) بتصرف من تفسير أبي السعود، (٣/٢٨٤).

المبحث الرابع

دراسة إحصائية حول الألفاظ المتشابهة في آيات الحوت ودلالاتها السياقية

ورد اسم الحوت في القرآن الكريم خمس مرات، وقد تنوع الحديث عن الحوت في القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع:

– فجاء الحديث عن الحوت الذي كان طعامًا لموسى وفتاه في ظاهرة وكان نورًا وبيانًا لموسى في باطنه، كان تعليمًا من الله تعالى لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:٦١]، وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:٦٣].

– كما جاء الحديث عن الحوت الذي التقم يونس عليه السلام فكان عقابًا له، بل لقبه الله به في القصة الثامنة من قصص الأنبياء في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وجاءت التسمية صريحة بـ"صاحب الحوت" في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨].

– وذكر يونس باسمه الصريح المعروف به في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات:١٣٩–١٤٨].

كما جاء الحديث عن الحيتان التي كانت يوم السبت شرعًا أمام القرية حاضرة البحر: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ

﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

والحوت في هذه القصة يمثل الرزق المطلوب، والخير المرغوب الذي جعله ابتلاء لهؤلاء الناس.

وبالنظر للسياق الذي ورد فيه الحوت في هذه القصص نجدها كلها محن وابتلاءات من الله سبحانه لأنبيائه وكان شريكهم فيها الحوت، الذي كان محور القصة فقد كان علامة لموسى لوجود العبد الصالح ولكن كان في هيئة طعام لموسى وفتاه، وقد نسى كل منهما هذا الطعام في مكان تجاوزاه، وهو ما دفعهما إلى الرجوع إلى هذا المكان، وقد كان وراء هذا الرجوع غرض آخر أراده الله تعالى، وقد أفصح عنه موسى عندما قال ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤].

حيث كان الرجوع إلى هذا المكان سببًا في لقائه الخضر عليه السلام وجرت بينهما القصة المذكورة بعد ذلك، وقد جاء لفظ الحوت في هذه القصة مفردًا في كلا الموضوعين.

أما في قصة يونس عليه السلام نجد أن يونس ذكر باسمه المعروف ومرتان ذكر بلقبه (ذا النون – صاحب الحوت) وعندما ذكر باسمه الصريح كان ذلك في معرض النعمة والفضل من الله سبحانه على أنبيائه الكرام الذي فضلهم على العالمين فأخذ يسرد ما حدث لأنبيائه، إلى أن وصل إلى يونس عليه السلام فأخذ يقص قصته باسمه الصريح بطريقة مطولة في سورة الصافات ، وهي الموضع الوحيد الذي ذكر فيه قصة يونس من أوله لآخره من وقت العقاب لوقت الاستجابة والنجاة، بخلاف الموضوعين الآخرين الذي ذكر فيهما يونس بلقبه (ذا النون، صاحب الحوت) ، أما الحوت فقد ذكر بالاسم الظاهر أكثر من مرة ، كما ذكرمرة بـ (ذا النون) ومرة بالإضافة (كصاحب الحوت) .

وفي الآيات التي ورد فيها اسم "حيتان" بالجمع، نجده دلالة نفاد صبر أهل القرية، ونفاد صبر بعض من لم يشاركوهم المعصية، فتخلوا عن وعظ

قومهم.

«وعليه فالقرآن قد استعمل اسم "حوت" طعامًا لموسى عليه السلام في رحلته للخضر الذي أظهرت له عجزه عن شديد الصبر، وحواء ليونس عليه السلام إذ ذهب مغاضبًا فقد صبره، وصيدًا شرعًا يوم السبت لم يصبر على فواته أهل القرية، والاسم بذلك جامع لزوم دلالي هي دلالة نفاذ الصبر لوجود دافع قوي، وهو ما يترتب عليه اللوم والمؤاخذة»(١).

ولو نظرنا إلى استخدام لفظ الحوت نفسه في هذه السياقات المختلفة وما معها من مفردات لها معان مختلفة كل حسب سياقه وسأسرد بعض منها للموازنة بينهم كل واحدة في موضعها وبقية الألفاظ الغير مشتركة بين الآيات فقد تم تحليلها سابقًا ولا داعي للتكرار.

– أولًا: لفظ "ذا النون" و"صاحب الحوت" هذان لقبان ليونس عليه السلام وردت الأولى في سورة الأنبياء ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] والثانية في سورة القلم قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم:٤٨].

اشترك اسم (نون) مع اسم (حوت) في الحديث عن قصة يونس عليه السلام وبقائه في بطن الحوت، إلا أن القرآن الكريم فرق بين الاسمين دلاليًا، فجاء مع الاسم (نون) بدلالة الاستجابة ليونس وتكريمه لتسبيحه ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

فاسم (نون) مرادف لاسم (حوت) لأنه يدل على الحيوان نفسه الذي التقم يونس عليه السلام لكن القرآن يستعمل كل اسم منهما مع دلالة تغاير الآخر، وهو ما يعد لزومًا دلاليًا لكل اسم(٢).

---

(١) المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن المجيد، ص(٦٨).

(٢) المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن المجيد، (٦٨).

وقيل : إن "ذا النون" أشرف لقبًا من "صاحب الحوت" حيث يقول الإمام الزركشي: فالإضافة بـ"ذي" أشرف من الإضافة بـ"صاحب" ولفظ "نون" أشرف من الحوت(١).

ويقول الإمام السيوطي «فإنه حين ذكر في معرض الثناء عليه أتى بـ"ذا" وليس في لفظ "الحوت" ما يشرفه بذلك، فأتى به "صاحب" حين ذكره في معرض النهي عن اتباعه»(٢).

وعليه «فلا توجد تفرقة لغوية بين اسم "حوت" واسم "نون" تقول بأن الأول في مقام النهي والتوبيخ، والثاني في مقام الثناء، بل هو استعمال خاص بالقرآن الكريم الذي جاء باسم "حوت" مع النهي عن فقدان الصبر مثلما حدث من يونس عليه السلام وذلك في قوله (فاصبر لحكم ربك ... مكظوم) وجاء باسم (نون) مع ذكر صيغة دعاء يونس ومع التصريح بالاستجابة والنجاة من الله تعالى»(٣)، ويذكر الكاشاني أن معنى اسم "نون" في اصطلاحات الصوفية «العلم الإجمالي في الحضرة الأحدية، والقلم حضرة التفصيل»(٤).

أي أن المقصود باسم "نون" علم الغيب وهو المقصود من تفسير النون بالدواة، فعلم الغيب كالدواة يأخذ منها القلم بالتفصيل في كتابه ما سيكون ويطلعنا الله تعالى عليه بحصوله، ومعنى الغيب والخفاء موجود في تسمية يونس وهو في بطن الحوت باسم "ذا النون" لأنه عليه السلام كان متخفيًا في غيب بطن الحوت وغيب البحر، فاسم "نون" في استعمال القرآن الكريم له مرادفًا لاسم "الحوت" الذي يدل على الاحتواء الحسي أي السجن الحسي، ولا يفيد إلا اسم حيوان.

---

(١) البرهان للزركشي، (١٦٢/١).

(٢) الإتقان للسيوطي، (١٩٦/٢).

(٣) المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن، (٦٨).

(٤) اصطلاحات الصوفية، كمال الدين عبد الرازق الكاشاني، ت/ عبد الخالق محمود، دار المعارف، القاهرة، ط(٢)، ص(١١٣).

فإذا كان اسم "حوت" لازمته دلالة نفاذ الصبر واللوم عليه، فإن اسم "نون" لازمته دلالة التشريف، سواء كان من ذكره في مقام الثناء على يونس وذكر تسبيحه، أو من قسم الله تعالى باسم (نون)[١] .

ثانيًا: ورد فعل "نبذَ، نُبذ" جاء هذان الفعلان في سياق سورة يونس عليه السلام (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) ومرة أخرى (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) فقد بنى الفعل الأول "فنبذناه" للمعلوم بينما بنى في الثانية (لنبذ بالعراء) للمجهول.

لو نظرنا لسياق النبذ في الآيتين لوجدناه ورد في سياق اللوم على يونس نتيجة فعلته وعدم صبره، فوقع عليه اللوم وكان نتيجة ذلك النبذ بالعراء وهو سقيم خرج من بطن الحوت كالطفل، وتارة وهو مذموم، وثمة أمر آخر نرى النظم الكريم في قوله "فنبذناه" قد اسند النبذ له سبحانه، بينما أبهم الفاعل وحذف في قوله "لنُبذ" للعلم بالفاعل وكراهة أن ينسب الذم لله سبحانه، أدبًا مع الذات العلية.

ومن لطائف ما قيل في هذه الآيات قول أبي البقاء الكفوري في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات:١٤٣]، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم:٤٩] فإن الآية الأولى في قوة لو انتفى التسبيح لثبت اللبس، والثانية في قوة لو انتفت النعمة لثبت النبذ[٢].

والأولى أن يقال أن النبذ في الأولى جاء مصاحبًا للسقم لذا ذكر معه الفاعل، فالسقم مرض جسدي لا عيب فيه، بينما النبذ في الثانية جاء مصاحبًا للذم، لذا حذف الفاعل تأدبًا مع الله.

ونلحظ أيضًا في عرض القصة اختلف من سورة لأخرى، فإذا نظرنا إلى ما في سورة القلم نجدها مجملة ثم تلتها الإشارة التي في سورة الصافات

(١) المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن المجيد، (٦٩).
(٢) الكليات، ص(١٢٥٩).

ففصلت ما أجملته سورة القلم.

أما ما ورد في سورة الأنبياء فهو إجمال ثان لما فصل في سورة الصافات، ومع كون ما في الأنبياء مجملًا فإنه فصل فكرة مجملة جاءت في الصافات وهي قوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين) فجاءت الأنبياء وحكت ما قاله يونس عليه السلام (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

كما نجد كلًا من القلم والصافات تحكيان القصة دون أن تذكرا ليونس عليه السلام أي قول قاله سوى الإشارة التي وردت في الصافات من وصفه بالتسبيح، وقد جمعت الأنبياء بين وصف يونس عليه السلام بما وقع منه من فعل، وبين القول الذي قاله فهذه المصادر الثلاثة: القلم – الصافات – الأنبياء، وإن تحدثت حديثًا مكررًا عن واقعة واحدة، فليس في هذا التكرار فضول وإنما كل نص يعاضد نظيره في أسلوب قوي محكم.

كما نجد أن القلم وهي أول مصدر يتحدث عن حوت يونس حسب الترتيب النزولي نجد الإشارة إلى الحوت واردة ضمن إرشاد ونصح وجملة المولى تبارك وتعالى لسيدنا محمد ﷺ: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) وسورة القلم نفسها تتحدث عن المتاعب التي لقيها سيدنا محمد ﷺ في مجال الدعوة من مشركي قريش، فأنزل الله هذا الكلام ليثبته ويقوي عزيمته، وهنا كان المقام مناسبًا ليحذر الله رسوله من أن يصنع كما صنع يونس حين غضب من قومه وترك الميدان دون أن يستأذن من ربه، فكان من أمره ما كان، ولم يقل الله له عليه السلام ولا تكن كيونس «بالاسم الصريح، لأن يونس من حيث يونس ليس فيه ما يحذر، لهذا جاء النظم القرآني بالوصف الذي هو محط العظة والعبرة "صاحب الحوت" كما في هذا الوصف من إيحاء وتذكير لا يخفى أثره البليغ في التربية والتوجيه»[1].

(١) بتصرف من الحيوان في القرآن الكريم، ص(٢١٦-٢١٧).

– نلحظ استخدام حرف العطف "الفاء" خصوصًا في معظم الآيات الواردة في قصة الحوت وذلك للدلالة على سرعة وقوع الأحداث وتلاحقها.

هكذا كانت قصتنا مع الحوت واستخداماته وسياقاته المتنوعة، وإن اختلفت السياقات إلا أنه ثمة أمر مشاهد وملموس وهو أن الحوت في كل مشهد من المشاهد التي ورد فيها ذكر الحوت سواء أكان مع نبي كموسى ويونس أو مع أصحاب السبت، لم يتغير موقفه فهو آية وعلامة من عند الله، ودليل على قدرته سبحانه في الخلق والإبداع وفي تسيير الأمور وفق مشيئته سبحانه.

فهذا الحيوان لم يذكر في القرآن عبثًا ولا تسلية وإنما جاء ذكره في كل موضع ذكر فيه للدلالة على معنى تشريعي أو بياني أو تربوي، مما لفت الأنظار إليه وإلى أهمية دوره وما استودعه الله فيها من حكم وقدرات تدل دلالة قاطعة على قدرة الخالق العظيم وحسن خلقه وبديع صنعه فتبارك الله أحسن الخالقين.

والله ولي التوفيق

الخاتمة

اختتم هذه الرحلة الماتعة مع السياق القرآني للمفردة القرآنية بجملة من النتائج منها:

– يعد السياق إحدى نظريات المعنى حيث يتجلى دوره في تحديد معنى الوحدة اللغوية ومكانها من النظم والتأليف، كما يحدد ملامحها خارج النص بوصفها دوال نفسية وثقافية توجه مسار النص.

– يوضح السياق الفروق الدلالية الدقيقة في الآيات المتشابهة لفظًا ومعنى، فكلما تكررت الآيات في لفظها ومعناها، كلما اتضح المعنى وازداد قوة وتوسع أفق انتظار المتلقي لكشف المعنى المراد والكشف عن آليات التفسير اعتمادًا على السمات الدلالية الفارقة، التي هي من اختصاص المعجم.

– يعين السياق على الكشف عن الروابط اللفظية والمعنوية للآيات، الأمر الذي يحقق الإنسجام والإتساق في النص كحروف العطف وأسماء الإشارة ...

– إدراك العلماء القدامى لدور السياق في تقرير المعنى للمفردة القرآنية وهذا ما أطلقوا عليه: مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

– تنوع عرض القصة ووسائل الإمتاع من خلال مجيئها مرة مفصلة ومرة مجملة، وذكر السبب ونتيجته والاعتماد على الحالة النفسية للمخاطب ومراعاة أحواله.

إن التكرار الوارد في قصة يونس لم يكن فضله، وإنما جاء به المقام متممًا للمعنى المراد ومفصلًا لما سبق .

هكذا جاء نظم كل مفردة من المفردات في سياقاتها المحددة لها المتوافقة معها، فكل لفظة تتناسب مع ما قبلها وتطلب ما بعدها، كما جاءت كل لفظة في سياقها هي الأليق والأنسب، ولو جاءت غيرها في موضعها لما أدت الغرض المطلوب، ولما توافقت مع هذا النظم البديع.

اللهم إني أسالك عفوًا واسعًا، وعملًا متقبلًا، وأجرًا مضاعفًا ودعاء مستجابًا، وسعيًا خالصًا لوجهك الكريم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وشفيع الموحدين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
١- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ١٩٨٦، الطبعة(٧).
٢- اصطلاحات الصوفية، كمال الدين عبد الرازق الكاشاني، ت/ عبد الخالق محمود، دار المعارف، القاهرة، ط(٢).
٣- إعراب القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، ت/ زهير غازي، الناشر: علم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م.
٤- البحر المحيط، محمد بن حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط(٢)، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٥- بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١) ١٤١٤هـ.
٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢م.
٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي، ت/ محمد علي النجار، وعبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، ط(١)، ١٣٩٠م.
٨- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ت/ مجموعة من المحققين طبعة دار الهداية بدون.
٩- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت/ السيد أحمد صقر، ط(٣)، المكتبة العلمية، المدينة المنورة،١٩٨٢م.
١٠- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط/ مؤسسة التاريخ، بيروت، ط(١)، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
١١- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العماري، طبعة/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون.
١٢- تفسير الشعراوي، المكتبة التوقيفية (د.ـ) وطبعه دار أخبار اليوم،

٢٠٠٣م.
١٣- التفسير الكبير للفخر الرازي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.
١٤- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للواحدي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠١٤م.
١٥- تهذيب اللغة، الأزهري/ أبو منصور محمد بن أحمد، ت/ محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م، طبعة أولى.
١٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت/ محمد بيومي وعبد الله المنشاوي، ط(٢)، القاهرة، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.
١٧- جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون.
١٨- حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين الدميري، المكتبة الإسلامية، بدون.
١٩- الحيوان في القرآن، د/ فوزية يوسف بغدادي، إشراف دكتور/ عبد العظيم المطعني، ١٩٨٥.
٢٠- الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
٢١- دلائل الإعجاز الإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ محمد رضوان، د/ فايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط(٢)، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي، إحياء التراث العربي، بيروت، ط(٤)، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
٢٣- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٨م.
٢٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد ابن علي بن محمد الشوكاني، ت/ عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٥- فهارس الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج، مكتبة الخانجي، ت/ محمود محمد الطناجي، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
٢٦- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط أولى، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٤م.
٢٧- كتاب تفسير القرآن (ابن المنذر)، المؤلف إبراهيم بن المنذر النيسابوري أبو بكر، ت/ سعد بن محمد السعد، الناشر دار المأثر، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل لأبي القاسم الزمخشري الخوارزمي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٢٩- لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، بيروت، ط (١)، ١٤١٠.
٣٠- اللمع في العربية لابن جني، دار الكتب الثقافية، ١٩٧٢م.
٣١- مجموع الفتاوى لابن تيمية، ت/ عبد الرحمن بن محمد قاسم، ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٣٢- مختار الصحاح، محمد أبي بكر الرازي، الطبعة الجديدة، ت/ محمود خاطر، إخراج/ دائرة المعارف، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٥م.
٣٣- مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية دراسة تحليلية تربوية، د/ طلعت محمد عفيفي.
٣٤- معاني القرآن أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفشي الأوسط، ت/ هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(١)، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
٣٥- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت/ عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
٣٦- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي، دار الاكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ط(١).
٣٧- معجم مصطلحات الأدب، فاروق شوشة، محمود علي مكي، القاهرة، ١٤٥٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٨- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشر المتحدين، ١٩٨٨م.
٣٩- المعجم الفريد للزوم الدلالي في القرآن المجيد وأسماء الحيوان وأعضائه، د/ محمد سامي عبد السلام، الناشر/ مكتبة بورصة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٣م.
٤٠- المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ١٩٦٠م.
٤١- مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني، ت/ صفوان داوودي، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط(٢)، ١٩٩٧م.
٤٢- مغني اللبيب لابن هشام، ت/ محمد محي الدين، المدني، القاهرة (د.ت).
٤٣- النكت والعيون لأبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان.
٤٤- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ت/ مجموعة من الباحثين، الناشر، جامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، ط (١)، ٢٠٠٩م.

الرسائل والبحوث:

٤٥- أسماء الحيوان في القرآن الكريم دراسة دلالية ومعجمية، رسالة ماجستير، السيد عمر عليوي، ٢٠١٢م.
٤٦- بلاغة الاستهلال بالحمد في السور الخمس رسالة دكتوراه، د/ شحاتة عبد الرازق شحاتة، ٢٠٠٠م.
٤٧- سورة الصافات دراسة أسلوبية، عدالة مصطفى موسى، إشراف د/ محمد القضاة، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.
٤٨- الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، سامي العجلان، ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط(١)، ١٤٣٠هـ.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	٩٥١
المقدمة	٩٥٣
التمهيد	٩٥٥
المبحث الأول: بلاغة لفظة الحوت في القرآن في ضوء السياق (حوت يونس عليه السلام)	٩٥٩
المبحث الثاني: بلاغة لفظ الحوت من القرآن في ضوء السياق (حوت موسى عليه السلام)	٩٧٧
المبحث الثالث: بلاغة لفظ (الحوت) في القرآن في ضوء السياق (حوت أهل السبت)	٩٩٣
المبحث الرابع: دراسة إحصائية حول الألفاظ المتشابهة في آيات الحوت ودلالاتها السياقية	٩٩٩
الخاتمة	١٠٠٦
المصادر والمراجع	١٠٠٧